الفصل السابع
الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى
أشهر العلماء
علماء بخارى وسمرقند
الإمام البخارى رضى الله عنه (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) (٨١٠ - ٨٧٠ م)

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى، الجعفى ولاهامير المؤمنين فى الحديث وإمام الأئمة، صاحب (الجامع الصحيح) المعروف بصحيح البخارى، الذى اختاره من بين ستمائة ألف حديث، وهو أوثق الكتب وأصحها بعد كتاب الله تعالى.

مولده وآباؤه:

ولد الإمام محمد بن إسماعيل فى (بخارى) يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ. وكان أبوه من أهل العلم والسعة فى الرزق، مشتغلا بالتجارة وقد سمع من حماد بن زيد وابن المبارك، والإمام مالك بن انس فى المدينة المنورة وسمع منه (والمغيرة) هو أول من أسلم من (آباء البخارى) وكان إسلامه على يد أحد مواطنية واسمه (اليمان) وهو الجد الأعلى للمحدث الحافظ (عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن اليمن المسندى الجعفى).

ونسب (البخارى) إلى الجعفى، مثل كثير من أهل بلاد ما وراء النهر، الذين انتسبوا إلى هذه القبيلة اليمنية، التى تنتسب إلى (جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج ولكثرة من أسلم من الترك على يد هذه القبيلة، قال الشاعر:

وما كانت الأتراك أبناء مذحج إلا أن فى الدنيا عجيبا لمن عجب

وما ذلك إلا أن هؤلاء الأتراك، الذين أسلموا على يد هذه القبيلة اليمنية قالوا نحن أبناء لهذه القبيلة أو كالأبناء.

وقد أخرج هؤلاء الدعاة بفضل صبرهم وإخلاصهم لله - أفذاذا وعباقرة رفعوا شأن هذه الأمة، واعلوا مكانها، وخدموا الإسلام أعظم خدمة.

نشأته:

توفى والد الإمام البخارى وابنه (المبارك محمد) طفل صغير، فرعته أمه أيما رعاية، وذهبت به إلى مجالس العلماء يستمع إليهم، ويأخذ عنهم وهو طفل حدث، حتى قال الإمام (البخارى) عن نفسه: (الهمت حفظ الحديث، وأنا فى الكتاب، وعمرى عشر سنين أو أقل.

عبقريته ونبوغه المبكران:

وكان ممن يذهب إليهم، لاستماع الحديث، فى بخارى المحدث (الداخلى) وروى أن الداخلى قال يوما - فيمن يقرره للناس (روى سعفان عن أبى الزبير عن إبراهيم) فقال الغلام النجيب، الذى لم يجاوز احدى عشرة سنة آنذاك: (إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم) فظن المحدث (الداخلى) أن هذا الطفل يعبث، فانتهره لقلة أدبه مع أستاذه، فقال الغلام الألمعى (ارجع إلى الأصل،إن كان عندك) فعلم الأستاذ من لهجة الغلام الجادة أنه غير عادى فذهب مسرعا ودخل داره، يرجع إلى الأصل، فوجده كما قال (البخارى) فعاد من فوره إلى درسه، وقال للغلام: صدقت.

ويا له من درس بليغ، ما أحرانا أن نلتفت إليه: كيف يقف التلميذ الصغير للأستاذ الكبير ليقول له: أنت على خطأ، حينما يعلم أن ذلك خطأ، ثم كيف ترى الأستاذ الكبير لا يرى غضاضة فى أن يرجع إلى المراجع، ليستوثق من الحقيقة، وهو فى مجلس الصدارة والتعليم، ثم يرجع من فوره، ليخبر الناس أن هذا الغلام الصغير الذى لم يتجاوز الحادية عشرة على صواب، وأنه وهو العالم المحدث الأستاذ - على خطأ.

وهذه هى الجرأة المحمودة، وهذا هو التواضع المحمود: حيث لا يخجل الصغير أن يقول للكبير أنت على خطأ، وحيث لا يستكبر صاحب المكانة أن يطاطىء رأسه للحق، ويقول لقد أخطأت والغلام على حق.

وفى هذه السن الغضة الطرية - تلقى (البخارى) علوم الحديث من أئمته فى بلاده من أمثال: محمد بن سلام البيكندى (وبيكند مدينة تبعد عن بخارى بأربعين

كيلو متر تقريبا) وعبد الله بن محمد المسندى الجعفى (البخارى). . . . وكان شيخه محمد ابن سلام البيكندى يقول: كلما دخل على هذا الصبى تحيرت.

قال البخارى: (فلما بلغت فى سنت عشرة سنة - حفظت كتب ابن المبارك. ووكيع بن الجراح وعرفت كلام هؤلاء) (يعنى أصحاب الرأى من الفقهاء).

وفى هذه السن الغضة، عام ٢١٠ هـ/م، وهو ابن ست عشرة سنة، حج إلى بيت الله الحرام، مع أمه وأخيه (أحمد) الذى يصغر (البخارى) صاحب الترجمة.

وكان (البخارى) فى هذه الرحلة لا يدخل بلدا ألا ويسمع من حفاظها، فسمع فى (بلخ) (وهى عاصمة أقليم باكتيا فى افغانستان اليوم) من الحافظ (مكى بن إبراهيم بن عبد الله بن المثنى الأنصارى) وفى الكوفة سمع من (عبيد بن موسى العبسى) وفى (مكة المكرمة) سمع من شيخها وقارئها (عبد الله بن يزيد المقرى)، وفى بغداد من (عفان بن نافع البهرانى)، وفى (دمشق) من (أبى مسهر عبد العلى بن مسهر الغسانى)، وفى (عسقلان من (أدم بن أياس)، وفى (فلسطين) من (محمد ين يوسف بن واقد الفريانى) (والفرياب قرية من بلاد ما وراء النهر وينتسب إليها الكثير من العلماء وتقع اليوم فى شمال أفغانستان).

ومما تقدم ترى كيف استفاد الإمام (البخارى) الشاب الحدث، فى رحلته إلى الحج، استفادة عظيمة، حيث التقى بأكابر علماء الحديث، فى عصره، وأخذ عنهم واستمع إليهم، ووعته حافظته القوية، التى لا تكاد تفلت شيئا.

قال حاشد بن إسماعيل (كان البخارى يختلف معنا إلى مشايخ البصرة، وهو غلام، فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فقابلناه بعد ستة عشر يوما، فقال البخارى: قد أكثرتم على، فاعرضوا على ما كتبتم، فأخرجنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظته):

وتحدث (البخارى) عن فترة شبابه - قائلا (كنت فى مجلس الفريانى (فى فلسطين) فقال الأستاذ الفريانى: حدثنا سفيان وكان شيخ الفريانى) عن أبى عروة، عن أبى الخطاب، عن أبى حمزة، فلم يعرف أحد فى المجلس من فوق سفيان،

فقلت لهم: أبو عروة هو معمر بن راشد، وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة، وأبو حمزة هو أنس بن مالك).

وهذه الحوادث المتتالية فى صبا الإمام (البخارى) تلقى الضوء على نبوغه البكر، وحفظه العجيب الفذ، معرفته التامة برجال السند ولذا عندما دخل (البخارى) إلى العراق (بغداد) وهو فى شبابه، تسبقه شهرته - إجتمع عشرة من علماء الحديث، وأرادوا إمتحانه، ومدى علمه، فقالوا للبخارى: سيروى كل واحد منا عشرة أحاديث: ونريد منك أن تخبرنا بها، فذكر الأول عشرة أحاديث يقلب أسانيدها، فلما انتهى نظروا إلى البخارى فقال للثانى قل ما عندك، فلما انتهى، قال للثالث: هات ما عندك، وهكذا حتى أتم العشرة أحاديثهم المائة المقلوبة الأسانيد، وقد ظن بعضهم أن (البخارى) يقول: لقد قلت يا فلان، وهو الأول، كذا وكذا، وعدد حديثه المقلوب السند، والصحيح كذا وكذا، ثم انتقل إلى الثانى والثالث حتى على المائة حديث، يعيد كل حديث قالوه، ثم يرد السند الصحيح، فعجبوا لحفظة الأحاديث المقلوبة السند، من مرة واحدة تقال له، أكثر من عجبهم من حفظه للأحاديث بأسانيدها الصحيحة.

تلاميذ البخارى:

وانتهت بعد ذلك إليه رئاسة الحديث، وأخذ عنه الجم الغفير من جهابذة العلماء، منهم الإمام (مسلم بن حجاج القشيرى) صاحب (صحيح مسلم) وهو ثان كتب الحديث الصحيحة، وهو من (نيسابور) بخراسان، ونقع - اليوم - فى إيران، والإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى وهو من ترمذ فى أوزبكستان، ومنهم شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن نصر وكان من أعلم الناس بالسنن، واضبطهم لها، وأذكرهم لمعانيها، وأدراهم بصحتها، كما وصفه ابن حزم، وهو من مرو عاصمة خراسان (وتقع - اليوم - فى جمهورية تركمنستان).

ومن تلاميذه: الحافظ بن على صالح (جزرة) محمد بن عمرو الأسدى، نزيل (بخارى) وشيخ ما وراء النهر فى الحديث.

ومنهم: الحافظ أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الخضرمى الكوفى الأذرى الثقة (الدراقطنى) وغيره.

ومنهم: ابن خزيمة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق السلمى الحافظ، صاحب المصنفات الكثيرة، التى تربو على مائة وأربعين كتابا.

ومن أبلغ ما يوضع مكانة (البخارى) هذه الحادثة، التى يرويها أحد تلاميذ (البخارى) يوسف بن موسى المروزى: قال: (كنت بالبصرة فى جامعها: إذ سمعت مناديا ينادى: يا أهل العلم، قدم محمد بن إسماعيل البخارى، فقاموا إليه، وكنت معهم، فرأيت رجلا شاباً ليس فى لحيته بياض، فصلى خلف الأسطوانة، فلما فرغ احدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلسا للإملاء، فسألهم أن يجلس غدا فى موضوع كذا، فلما كان الغد، حضر المحدثون والحفاظ والفقهاء والنظارة، حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألف نفس فجلس أبو عبد الله للإملاء، فقال: يا أهل البصرة، أنا شاب سألتمونى أن أحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها (أى لم تعلموها من قبل فتعلموها منى) فتعجب الناس وأخذ فى الإملاء، روى هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان فليست عندكم، وهى كذا، فاستفاد منه أئمة علماء البصرة وحفاظها، حيث أعلمهم بطرق للحديث المروى عن أهل البصرة لم يكونوا يعلمونها من قبل.

تكفى هذه لترينا سعة علم (البخارى) بالحديث ورجاله: إذ المفروض أن يكون رب الدار أدرى بشئون بيته: فجاء (البخارى الفذ) وكان أعلم منهم بمروياتهم من الحديث وهو منتهى العجب.

اشتغال البخارى وبالتأليف:

لقد اشتغل (البخارى) منذ بداية شبابه بالتأليف، فقد قال عن نفسه: (طعنت فى ثمان عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم). وفرغ من ذلك فى سن العشرين وقال فى الليالى المقمرة. وكل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة ألا أنى كرهت أن يطول.

وكان (البخارى) يقول «لا أجئ بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين (يعنى حديثا موقوفا أو مقطوعا) إلا وله أصل أحفظه عن كتاب الله وسنة رسوله».

وقال - رحمة الله - عن نفسه: «أقمت بالمدينة بعد أن حجبت سنة أكتب الحديث (وقد حج وعمره ستة عشر سنة) وأقمت بالبصرة خمس سنين مع كتبى أصنف وأحج، وأرجع من مكة إلى البصرة.

وكان (البخارى) رحمه الله - يجمع إلى قوة الحافظة، التى يندر على مدى التاريخ مثيلتها، قوة الإدراك والفهم، وبخاصة لرجال الحديث ورواته، وجمع فى ذلك الرواية والدراية كما يقولون، جمعا لم يتأت إلا للقليل من العلماء على مدى التاريخ.

الجامع الصحيح:

وأعظم مؤلفات (البخارى) هو كتابه (الجامع الصحيح) الذى أختاره من بين ستمائة ألف حديث، مدة ستة عشر سنة، وتحدث (البخارى) عن كتابه العظيم، قائلا: (ما أدخلت فيه حديثا حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته، وقد جعلته حجة فيما بينى وبين الله).

وعدد أحاديثه ٧٢٧٥ حديثا بما فيها المكرر أما غير المكرر فهى ٤٠٠٠ حديث فقد خروجها من ستمائة ألف حديث.

وكان يكتبه - أولا - فى المسودة، فإذا أراد تبييضه حضر إلى مدينة الرسول ﷺ، وجعل يحول تراجمه بين قبر النبى - ﷺ - ومنبره، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين.

وعرض (البخارى) كتاب (الجامع الصحيح) على أئمة المحدثين ن فى عصره من أمثال (على بن المدينى) و(أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث.

وللإمام (البخارى) مجموعة أخرى من المؤلفات القيمة، نذكر منها: (الأدب المفرد) و(بر الوالدين) (كتاب الهبة) و(القراءة خلف الإمام) و(رفع اليدين فى الصلاة) و(التاريخ الكبير والأوسط) و(كتاب الكنى) و(كتاب الفوائد) و(خلق أفعال العباد) وكتاب الضعفاء وقضايا الصحابة والتابعين.

وبعض هذه الكتب مفقود - للأسف الشديد - منذ أزمنة متطاولة.

وفاة البخارى:

وعاد (البخارى) أواخر أيامه إلى بلدته (بخارى) وتعصب ضده مجموعة من الحاقدين عليه وأثاروا الغوغاء، فأخرجوه من بلدته، فسار إلى (خرتنك) إحدى قرى (سمرقند) وأقام بها قليلا، ثم توفاه الله، بعد أن قدم للإسلام والمسلمين خدمة عظيمة جليلة القدر، بكتبه، وعلمه وتدريسه، فى كافة المدن الإسلامية المشهورة - آنذاك - وأعظم كتبه وأبقاها أثرا (الجامع الصحيح).

وكانت وفاته عام ٢٥٦هـ (٨٦٩م) وقد ذكر ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) أن أكثر من سبعين ألف من الطلبة درسوا (الجامع الصحيح) على يدى الإمام (محمد بن إسماعيل البخارى) أثناء حياته، رحمه الله رحمة الأبرار.

ومن علماء بخارى، الذين يذكرهم التاريخ، ولكن لم يصلوا إلى مكانة (أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى) المتقدم ترجمته، ومع هذا فقد كان لهم دور كبير فى نشر العلم، فى بخارى) وغيرها من بلاد ما وراء النهر، ومراكز الحضارة.

الإسلامية على اختلافها نتيجة لتلك الرحلات المستمرة التى لا تكاد تنقطع وتلك الجهود المباركة التى جعلت الأمة الإسلامية، من حدود الصين شرقا، إلى جبال (البرانس) فى شمال أسبانيا غربا، بلادا واحدة يتجه غليها المسلم يقيم فى أى بلد شاء، دون حواجز مصطنعة ولا جوازات سفر، ولا طلب إقامة وإنما هى دار متصلة تسمى (دار الإسلام) يتلقى العلم وينشره فى جميع تلك الديار، بدون فروق أو حواجز، بل على العكس تتهافت القلوب والأسماع، للانتظام فى حلقته والاستفادة من درسه وتمتد إليهم الأيدى بالمحبة والمودة، وتفتح لهم ديار وأبوابهم، وتجلهم وتكرمهم، لأنهم ورثة الأنبياء، وأحق الناس بالتكريم والتعظيم، أينما حلوا وحيثما ذهبوا وانتقلوا، ومنهم علماء بخارى (محمد السبذمونى قاضى القضاة) فى عصر إسماعيل السامانى، وقد ظهر بعد وفاة الإمام البخارى، وتوفى هذا القاضى الفقيه سنة ٣٠٤ هـ - (٩١٦م).

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم (بخارى) شمس الأئمة عبد العزيز ابن أحمد الحلوانى البخارى، المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م الفقيه الحنفى،

المعروف بإمام أهل الرأى صاحب التصانيف فى الفقه الحنفى وفروعه، نذكر منها كتابه (المبسوط) فى الفقه، (النوادر) فى الفروع، و(الفتاوى) وهى مجموعة فتاوية، (وشرح كتاب أدب القاضى) الذى ألفه أبو يوسف، توفى فى قرية بالقرب من بخارى ودفن فى بخارى.

ومن قرية (طوس) وهى طواويس أحدى قرى بخارى (وهى غير مدينة طوس فى خراسان التى ظهر منها الإمام الغزالى وعمر الخيام) ظهر أبو جعفر رضوان بن عمر الطوسى (من علماء الحديث)، ومنهم الفقيه ظهير الدين محمد بن عمر البخار الذى تولى الحسبة فى (بخارى) كما تولى التدريس، فترة طويلة ومن كتبه الفتاوى الظهيرية، وتوفى فى بخارى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م وأهل بخارى بل وأغلب سكان ما وراء النهر أحناف، ولذا فإن من ظهر منهم فى الفقه كان ذلك على وجه الخصوص فى الفقه الحنفى.

ومن هؤلاء طاهر بن أحمد بن عبد الرشيد البخارى، الفقيه الحنفى، صاحب (خلاصة الفتاوى) والواقعات و(النصاب) وجميعها فى الفقه الحنفى، (ولد سنة ٤٨٢هـ / ١٠٩٠م توفى ٤٥٢ هـ / ١١٤٧م) ومنهم علاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخارى الفقيه الحنفى الأصولى الذى قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة فشرح البخارى الفقيه الحنفى الأصولى الذى قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة فشرح (المنتخب الحسامى) (أصول البرزودوى) وتوفى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠ م ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المولود سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧ م أستاذ الإمام البخارى، وقد أحدث حركة فكرية قوية فى بخارى وما حولها، قال عنه النرشخى فى تاريخ بخارى (ولم يكن أحد مثله فى الولاية، وكان زاهدا وعالما أيضا وصارت بخارى بسببه قبة الإسلام، والسبب هو أن أهل بخارى تعلموا فنشأ فيها العلم وصاروا أئمة وعلماء محترمين وكان هو السبب).

ومن أعلام قرى بخارى عبد الله بن محمد الكلاباذى السبذمونى من سبذمون أحدى قرى بخارى ولد سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م، ورحل فى طلب العلم إلى خراسات والعراق والحجاز، واشتهر باسم الأستاذ وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ

/ ٩٥٢ م، وممن اشتهر وظهر من أهل بخارى الشيخ الرئيس ابن سينا الذى ولد فى إحدى قرى بخارى ونشأ وتعلم فى بخارى ثم طاف البلاد، وطبقت شهرته الآفاق.

وعلى الرغم من أن الشيخ الرئيس من مواليد قرى (بخارى) وبها تنشأ، إلا أن أصوله فارسية وليست تركية، وكن هذا لا يمنعنا أن نذكره فيمن نبغ من أهل بخارى فقد سكنها آباؤه، وبها ولد ونشأ وترعرع، وكانت بخارى عاصمة العلوم - آنذاك.

الشيخ الرئيس ابن سينا:

أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا، أشهر أطباء المسلمين، على مدار التاريخ وكان كتابه (القانون فى الطب) هو المرجع الطبى الأول والوحيد للأطباء، فى العالم أجمع، لمدة سبعة قرون منقضية، وهو مشهور، عند أهل أوربا، بإسم (أفيسينا) فقد ترجموا - منذ وقت مبكر - كتبه الطبية والفلسفية، وكان (القانون فى الطب) عمدتهم، وعليه كانوا يعلون، وقد طبع باللاتينية خمس عشرة مرة، ومرة واحدة بالعبرية، فى القرن الخامس عشر الميلادى، وكان مقررا فى جامعة (لوفان) حتى القرن السابع عشر الميلادى.

ولد عام ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م فى إحدى قرى (بخارى) ونشأ وتعلم فى بخارى وطاف البلاد، وناظر فيها العلماء، واتسعت من قم شهرته، وتقلد الوزارة فى (همذان) ثم حدث أن ثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، ففر منهم إلى أصفهان، وبها تفرغ للعلم، وصنف أكثر كتبه وبها كانت وفاته، وله أكثر من مائة مؤلف فى الطب، والفلسفة والمنطق والطبيعيات، والألهيات، ومن كتبه المشهورة يعتبر (القانون فى الطب) (الشفاء) وهو يقع فى أربعة أجزاء و(السياسة) و(أسرار الحكومة المشرقة) والأشارات و(الطير) و(أسرار الصلاة) و(لسان العرب) وله رسالة فى علم (الهيئة) وهى علم الطبيعة - اليوم - ورسالة فى (النبات واحيوان) وهو علم (البيولوجى) اليوم (وأسباب الرعد والبرق) وله شعر جيد وأشهر شعره (العينية) التى مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ويقال أن (ابن سينا) كان باطنيا، من أهل دعوة الحاكم بأمر الله الفاطمى، واتهم بأنه كان شيعيا إسماعيليا.

قال (ابن القيم) عنه: ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين). وهذا باطل وليس صحيح.

وقال (ابن تيمية) عنه: (تكلم ابن سينا فى أشياء من الألهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم فإنه

استفادها من المسلمين وإن كان إنما يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدى الذى كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد).

وعلى الرغم من (ابن سينا) كان مهتما فى دينه، إلا أنه كان مجمعا على رئاسته فى الطب، وتتجلى لك عبقرية (ابن سينا) الطبية فى كتابة (القانون) فى الطب، الذى ظل المرجع الأساسى لعلوم الطبية، خلال سبعة قرون (أى منذ القرن العاشر الميلادى حتى القرن السابع عشر) وذلك فى جميع عواصم العالم المعروفة آنذاك، وكان القانون يترجم إلى اللغات الأوربية، وبخاصة منها الأسبانية: حيث كان الأحتكاك بين الحضارة فى الأندلس، وبين سكان أسبانيا المسيحيين على أشده، ومن هناك انتقلت النهضة الأوربية الحديثة كما هو معلوم.

كما أن (القانون) ترجم إلى اللغة اللاتينية، لغة العلم والنهضة، فى ذلك الوقت، وعندما ظهرت الطباعة، فى أوربا طبع خمس عشرة مرة باللاتينية، ومرة واحدة باللغة العبرية، خلال ثلاثين سنة فقط، وذلك منذ عام ١٤٧٠ إلى عام ١٥٠٠م، ثم أعيد طبعه عشرات المرات، بكافة اللغات الأوربية.

وسننقل شيئا (يسيرا) من مقدمة (القانون) بقلم (ابن سينا) حتى تعرف عظمة هذا الرجل، فى المجال الطبى، على وجه الخصوص قال - بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد - ﷺ:

«وبعد فقد التمس منى بعض خلص إخوانى ومن يلزمنى إسعافه بما يسمح به وسعى أن أصنف فى الطب كتابا مشتملا على قوانينه الكلية والجزائية اشتمالا

يجمع إلى الشرح الاختصار وإلى إيفاء الأكثر حقه من البيان الإيجاز، فأسعفته بذلك، ورأيت أن أتكلم - أولا - فى الأمور العامة الكلية، فى كلا قسمى الطب، أعنى القسم.

النظرى، والقسم العملى، ثم - بعد ذلك - أتكلم فى كليات أحكام قوى الدوية المفردة ثم فى جزئياتها، ثم بعد ذلك فى الأمراض الواقعة بعضو عضو.

«فأبتدئ - أولا - بتشريح ذلك العضو ومنفعته، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق منى ذكره فى الكتاب الأول الكلى، وكذلك منافعها، ثم إذا فرغت من تشريح ذلك العضو - ابتدأت فى أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها، وطرق معالجتها بالقول الكلى فى حدة وأسبابه ودلائله، ثم تخلصت إلى الأحكام الجزئية، ثم أعطيت القانون الكلى فى المعالجة، ثم نزلت إلى المعالجات الجزئية بدواء دواء بسيط أو مركب، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة يد فى الجداول، والأصباغ التى أوى استعمالها فيه، كما تقف - أيها المتعلم عليه إذ وصلت إليه لم أكرر إلا قليلا منه..

«وأما الآن فإنى أجمع هذا الكتاب وأقسمه إلى كتب خمسة، على هذا المثال:

الكتاب الأول: فى الأمور الكلية فى علم الطب.

الكتاب الثانى: فى الأدوية المفردة.

الكتاب الثالث: فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الأناس عضوا، من الفرق (قمة الرأس) إلى القدم ظاهرها وباطنها.

الكتاب الرابع: فى الأمراض الجزئية التى إذا وقعت لم تختص بعضو وفى الزينة.

الكتاب الخامس: فى تركيب الأدوية والأقراباذين.

وقال عن الكتاب الأخير «وهذا الكتاب لا يسع من يدعى هذه الصناعة (أى الطب) ويكتسب بها أن لا يكون جله معلوما محفوظا عنده، فإنه مشتمل على أقل

ما لابد منه للطبيب، وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط، وأن أخر الله تعالى فى الآجل، وساعد القدر - انتصبت لذلك انتصابا ثانيا (وقصده أن يضع فيه كتابا آخر متوسعا فى علم الأدوية والأقراباذين).

وهكذا قسم (ابن سينا) كتابه المرجع، مثلما تفعل كليات الطب اليوم - فتجعل السنة الأولى والثانية لعلوم التشريح، والسنة الثالثة لعلم الأمراض (الباثولوجى) وعلم الأدوية (الفارماكولوجى) وعلم الميكروبات والطفيليات، ثم جعل السنة الرابعة والخامسة للأمراض الجزئية، مثل أمراض النساء والولادة وأمراض الأنف والأذن والحنجرة وأمراض العيون والأمراض الباطنية والجراحة، الخ....

ولم يكتف (ابن سينا) بمعلومات المتقدمين من يونان، وفرس وعرب، وسريان، وهنود يرتبها ويبوبها كأحسن ما يكون الترتيب والتبويب، بل يضيف إليها من ملاحظاته وتجاريه ومشاهداته الكثير الكثير، وفى هذا قال: «ثم تعهدت المرضى وانفتحت على أبواب من المعالجة أكتسبهتا من التجربة».

وهكذا ابن سينا يتعلم من مرضاه بمثل ما كان يتعلم من كتب (أبو قراط) و(جالينوس) وكانت له ملاحظات سريرية وتشريحية خاصة به، أضاف بها إلى الطب إضافات كبيرة، مثل وصفه للتجويف البلورى وصفا دقيقا، ووصفه لالتهاب الأغشية السحائية، ووصفه الدقيق لليرقان وأسبابه، واكتشافه علاج الأنيميا الحادة بنخاع العظام، الذى يعتبر اليوم آخر أنواع العلاج الحديثة لمرض الأنيميا الحادة الخطيرة، وحديثه عن أنواع الأورام والسرطانات، وتفصيله البارع لأنواع شلل الوجه واهتمامه الشديد بالأمراض النفسية والعصبية، وتحدثه بتوسع عن المناخوليا والعصاب، وتحدثه عن العشق، بوصفه ظاهرة نفسية، ومعالجتها، وإيراده طرائف وعجائب فى ذلك.

وفى طب العين تحدث عن طبقات العين الثمانية حديث من شرحها، وعرف أجزائها وطبقاتها، وانتقد (أبو قراط) و(جالينوس) حيث اهتما فقط بعدسة العين، بينما انصب اهتمام ابن سينا على الشبكية التى تنطبع عليها الصور المنعكسة، مثلما تنطبع الصورة فى الكاميرا على الفيلم الحساس.

ولم يترك (ابن سينا) بابا من أبواب الطب إلا تحدث فيه حديث خبير عالم واسع التجربة. ولقد تقدم الطب فى العصور الحديثة تقدما واسعا وأصبح الطب القديم متخلفا عنه بمراحل ولكن يبقى مع ذلك لابن سينا فضل سبقه لعصره، وأتيانه بكثير من العجائب والغرائب.

وللأسف فإن كتاب (القانون) فى الطب لم يطبع بالعربية إلا طبعة واحدة رديئة قديمة، بدون تحقيق، ولا تعليق عليها، وقد قامت دور النشر - أخيرا - بإعادة تصويرها (بالأوفست) وذلك لا يجدى فتيلا.

والواجب هو أن يعاد طبع الكتاب، بعد تحقيقه وشرحه والتعليق عليه، إذ أن الطبيب وطالب الطب - اليوم - قد بعد بهم العهد بلغة (ابن سينا) وتجتاج كثير من المسميات إلى توضيحها للأطباء بلغة العصر، مع ذكر ما يقابلها من أسماء علمية حديثة، لأن أغلب الأطباء العرب يدرسون - اليوم - الطب بلغات أوربية.

وقد ترجم (ابن سينا) لنفسه ترجمة وافية، ذكرها (ابن أبى إصبيعة) فى كتابه القيم (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) ونوجز ذلك - ها هنا - ومن أراد المزيد فليرجع إى الكتاب المذكور.

قال عن نفسه أن من مواليد قرية من قرى (بخارى) وأن أباه من (بلخ) فى أفغانستان وأن أمه من أهل (بخارى) وأن الأسرة انتقلت إلى بخارى وهو طفل صغير، وأنه حفظ القرآن الكريم كله، ولم يجاوز العاشرة، وحفظ كثيرا من الشعر والأدب، فى تلك السن الغضة الطرية، وقال أن أباه كان ممن سمع داعى الباطنية من الإسماعيليين، الذين حكموا مصر باسم الفاطميين، ووافق عونهم وكذلك كان أخوه الأكبر محمد وقال (وكانوا ربما تداكروا بينهم وأنا أسمع وأدرك ما يقولونه ولا تتقبله نفسى).

ودرس (ابن سينا) الفقه دراسة واسعة فى صغره، على يد (إسماعيل الزاهد)، وفى هذا القول ما يدل على ابن سينا لم يعتنق الدعوة الباطنية، وأن أعتنقها أبوه وأخوه، وأضف إلى ذلك أن أباه كان قد وجهه - وهو فى تلك السن - إلى تعلم حساب الهند.

ثم قدم (بخارى) رجل يدعى المتفلسف، وهو (أبو عبد الله النائلى) فدرس عليه (ابن سينا) الفلسفة الإغريقية دراسة واسعة، حتى أحرج أستاذه بكثرة مسائلة، ولم يكن الأستاذ المتفلسف واسع الفهم، بعيد الإدراك، فقد ضاق بأسئلة تلميذه الذكى، وطلب منه أن يقرأ كتب الهندسة والرياضيات والفلك والهيئة التى كانت جزءا من الفلسفة اليونانية وحده، ثم يعرضها عليه، فقرأها (ابن سينا) ولم يجد عند أستاذه ما يشفى غليله، وتوجه أستاذه إلى كركانج عاصمة اقليم (خوارزم) وبقى (ابن سينا) فى (بخارى) يدرس هذه الكتب العويصة، دون استاذ، حق اجادها، ولم يستعص عليه شىء منها، سوى الإلهيات، فقرأها كما يقول أربعين مرة، حتى حفظها، دون أن يفهمها، فلما وجد كتاب الفارابى الفيلسوف المشهور(وهو من فاراب من مدن قازاستان فى تركستان) وجد فيه حلولا لكثير مما أشكل عليه، وكان إذا تحير فى مسألة، كما يقول عن نفسه (ترددت إلى الجامع، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لى المستغلق، ويسر المتعسر).

ثم دعاه سلطان (بخارى) لمعالجته، فعالجه ن بعد أن فشل الأطباء فى مداوته وكان ابن سينا إذ ذاك ابن ستة عشر سنة وطلب الشاب العبقرى من السلطان أن يكون جزاؤه على مداوته هو فتح (المكتبة السلطانية) المليئة بخزان الكتب وله أن يأخذ منها ما يريد لمطلعته، فطالع مختلف العلوم، واستوعبها وقد قال عن هذه المكتبة الضخمة التى تدل على مكانة العلم فى بخارى فى عهد السامانيين ما يلى:

(فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل صناديق كتب منضدة بعضها على البعض.

فى بيت كتب علم مفرد.. وطالعت فهرست كتب الأوائل.. وطلبت ما احتجت إليه ورأيت أيضا من بعد.. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه).

وقال عن نفسه: (فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى، فرغت من هذه العلوم كلها وكنت إذ ذاك للعلم احفظ، ولكنه اليوم معى أنضج)

وفى هذه السن الغضة ألف كتابا جامعا لهذه العلوم، ألفه فى عشرين مجلدا، وأسماه (الحاصل والمحصول) وأنهى منه، وسنة واحد وعشرون عاما،

وكان ذلك الكتاب دائرة معارف كاملة ألفها هذا الشاب العبقرى فى سن الثامنة شعرة وانتهى منها فى سن الواحدة والعشرين.

وصف فى هذا السن - أيضا كتابا فى الأخلاق، اسماه (كتاب البر والإثم) ثم انتقل (ابن سينا) إلى (كركانج) عاصمة (خوارزم) ومنها تنتقل فى مدن (خراسان) وتولى الوزارة فثار عليه الجنود، حتى نهبوا عليه بيته، وطالبوا بقتله، فحماه السلطان وعزله من الوزارة، وتفرغ للتأليف وللطلب، فألف مئات الكتب فى مختلف فروع المعرفة، بحيث لم يترك بابا من أبواب العلوم إلا ولجه، حتى حدث ذات مرة أن أجتمع بأبى منصور الجبانى اللغوى، وتكلم ابن سينا فى مسالة من مسائل اللغة، فقال له الجبانى: أنك حكيم فيلسوف، وكذلك لم تقرأ فى اللغة، فامتعض ابن سينا وتفرغ ثلاث سنوات لدراسة اللغة، حتى ألف فيها ثلاثة كتب، وجعلها فى جلد قديم، وأوعز إلى الأمير، وطلب منه أن يبدى رأيه فيها، فنظر فيها (أبو منصور) وأشكل عليه كثير مما فيه فكان (ابن سينا) هو الذى ألفها، فاعتذر له، واعترف له بمكانته العالية فى اللغة، ثم ألف (ابن سينا) كتابه الضخم (لسان العرب) فى عشرة مجلدات فى علوم اللغة العربية.

وقد تأثر (ابن سينا) كغيره من فلاسفة المسلمين بالفلسفة (اليونانية) وعلى الأخص منها فلسفة (أفلاطون) و(أرسطو) و(أفلوطين) وهم مجموعة الفلاسفة الإلهيين من اليونان الذين يؤمنون بآله واحد للكون كله، ولكنهم يجعلونه متفكرا فى ذاته، متعقلا لها، لا يدبر هذا الكون، ولا يصرفه، بل ولا يعلم عنه شيئا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ونرى تأثر (ابن سينا) فى أواخر حياته بالصوفية، واتصاله بهم، حتى أن وصيته التى ذكرنها طرفا منها لتلميذه وصديقه (أبى سعيد بن أبى الخير الصوفى) تدل على ذلك دلالة واضحة، فهو يأمره باستحضار ذات الله، جلا وعلا، فى كل لحظة من لحظات حياته، وإلى التفكير فى مخلوقاته، والتدبر فى آياته ويأمره بتنزيه الله تعالى ولا يشغل سره إلا بذكره، ولا فكره إلا باجتلاء آياته، ولا يأنس إلا به، ولا يجعل لذاته إلا فيه، ثم يأمره برحمة المخلوقات وبخاصة منهم المؤمنين،

ويأمره بالصلاة والصيام البر والصدقة، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، والبعد عن الرياء والسمعة والعجب، واخلاص نية، مما نراه فى كتب الصوفية والرقائق، مثل كتاب (احياء علوم الدين) للغزالى، وكتاب (تنبيه الغافلين) للسمرقندى، و(عوارف المعارف) للسهروردى (الرسالة القشيرية) وكتب الشيخ عبد القادر الجيلاتى.

وخلاصة القول فى هذا العبقرى، الذى كان أشهر وأعظم أطباء القرون الوسطى وأوسعهم علما وفلسفة، أنه تحول فى أواخر أيامه من الفلسفة إلى الشرع الحنيف والالتزام به بل إلى نوع من الزهد والتصرف أيضا.

وفى أواخر أيام حياته أصيب (ابن سينا) بالقولنج (التهاب الأمعاء الغليظة) واشتد عليه المرض، لتنقله بين (همذان) و(اصبهان)، وهو مريض وقد ضعفت صحته، وكان يعالج نفسه، فلما رأى أن العلة قد اشتدت به - ترك التداوى - وقال (ابن المدبر الذى فى بدنى قد عجز عن تدبيره فما بى حاجة للمعالجة).

ويقال أنه اغتسل وتاب، وتصدق بماله على الفقراء، ورد المظالم إلى أهلها، وأعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن الكريم، واستمر على هذا الحال حتى توفى بهمذان، فى شهر رمضان ٤٢٢هـ (١٠٣٦م) مما تقدم من ترجمة بعض أعلام (بخارى) مثل الإمام البخارى، وأساتذته، وترجمة الشيخ الرئيس (ابن سينا) يتضح لك أن (بخارى) منذ فتحها المسلمون، لأول مرة، على يد عبيد الله بن زياد، فى عهد (معاوية) ثم أعادوا افتتاحها على يد (قتيبة بن مسلم الباهلى) سنة ٨٦هـ، أصبحت عاصمة من عواصم الحضارة الإسلامية، تشع بنورها فى الأفاق، بل لا نعدو الحقيقة أن قلنا أن (بخارى).

أصبحت تضارع (نيسابور) و(بغداد) و(مرو) و(دمشق) و(القيروان) و(القاهرة) و(أشبيلية) و(غرناطة)، وفى بعض فترات التاريخ كانت (بخارى) تفوقها حضارة وعلما وأدبا وتجارة وصناعة، وكانت تعرف باسم (بخارى الشريفة التقية) ذكر ذلك المستشرق المجرى (فامبرى) فى كتابه (تاريخ بخارى).

وقد كانت (بخارى) إحدى عواصم بلاد ما وراء النهر، منذ أن فتحت، استمرت على ذلك أيام الأمويين والعباسيين، وفى أيام المأمون - استقل (طاهر بن

حسين) قائد (المأمون) بحكم (خراسان) وما وراء النهر، وبقيت فى أولاده، ثم ظهرت الدولة السامانية، وكانت عاصمتها (بخارى) فارتقت فى عهدهم، وازدهرت ازدهارا كبيرا واستمرت على ذلك فى أيام الغزنزيين، الذين كانت عاصمتهم (غزنة) فى أفغانستان اليوم.

صم جاء المغول كالإعصار المدمر، الذى لا يبقى على شيء، فحطم (بخارى) و(سمرقند) و(غزنة) واستمر الإعصار المدمر والطوفان المغولى، حتى أغرق بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك فى بحور الدماء على يد هولاكو. ثم انحسر الطوفان فى عين جالوت، وانهزم المغول على يد السلطان (قطز) وقائده الظاهر بيبرس وعادت أمجاد الإسلام وظهرت دولة السلاجقة، ثم ظهر (تيمور لنك) فجعل قاعدة ملكه (سمرقند) أصبحت عاصمة العالم المعروف - آنذاك - وتوارث (بخارى) قليلا، لتعود بعد انتهاء حكم (تيمور لنك) فى عهد الشيبانيين والاشتراخانيين.

وفى القرن الثامن عشر تفككت تلك الدولة، واستقل كل أمير بمنطقة، ودعيت (خانية) فكانت هناك (خانية بخارى) وخانية خوقند (وخانية خوارزم) التى أصبحت تسمى (خيوه) وكانت أكبر هذه الخانيات (خانية بخارى) التى استمرت تقاوم الغزو الروسى القيصرى، ولم تسقط مثلما سقطت بقية لخانيات.

إلا فى عام ١٩٢٢م، عندما هجم عليها الجيش الروس الأحمر بثمانين ألف جندى مسلحين بأحدث الأسلحة، فاحتلوها بعد أن قتلوا أنور باشا قائد جيشها الصغير.

وقد ذكر المستشرق المجرى (ارمينوس فامبرى) صاحب كتاب (تاريخ بخارى) الذى ألفه عام ١٨٧٢م أن (خانية بخارى) كانت على جانب لا بأس به من الحضارة، وأن كان قد دب إليه الاضمحلال وكانت هذه الخانية كما ذكر تشمل:

١ - (بخارى) وضواحيها.

٢ - قضاء (بخارى).

٣ - (ميان كل) وقصبتها (كرمينية).

٤ - (كته كورغان).

٥ - (حصار) مع (شير آباد).

٦ - (سمرقند) وما حواليها من مدن وقرى.

٧ - (قارش) مع (فيض آباد).

٨ - (جهار جوى).

٩ - (قراقول).

وكانت هذه المناطق سابقا تدعى بالصغد، ويمر فيها نهر يعرف بنهر الصغد، ويسمى الآن (زرفشان).

وظهر من المدن والقرى المحيطة ببخارى والتابعة لها كثير من العلماء والأفذاذ، ومن ذلك مدينة (بيكند) ثانى مدن (بخارى) التجارية والتى تبعد عن بخارى بأربعة وأربعين كيلو مترا، وتقع على طريق (أمل) ومرو والتى كانت ذات ثراء واسع.

فى هذه المدينة ظهر المحدث (محمد بن سلام البيكندى) أستاذ الإمام (البخارى) وصاحب المصنفات العديدة، فى علوم الحديث، (ولد سنة ١٦٠هـ - وتوفى سنة ٢٢٥هـ ومنها ظهر المحدث (أبو الفضل أحمد بن على بن عمرو بن على السليمانى البيكندى) الذى عد محدث عصره (توفى سنة٤١٢هـ / ١٠٢١م) وله أكثر من أربعمائة ومصنف، أغلبها فى علوم الحديث.. ومنها - أيضا - ظهر (محمد أحمد البيكندى) أحد علماء الكلام، الذين عرفوا بالاعتزال، وتولى القضاء فى حلب، ثم دخل بغداد، وتوافى بها ٨٤٢هـ / ١٠٨٩م وله مؤلفات، منها (الهدى والرشاد) (وتحقيق الرسالة بأوضح الدلالة) (والرسالة المسعودية) وغيرها..

وفيما يلى - إن شاء الله - سنتناول بالحديث مدينة (سمرقند) ومن ظهر بها من العلماء الأفذاذ، وفحول الرجال.

سمرقند:

ومن بين المشاهد والمزارات فى سمرقند أحتل مكان الصدارة على الدوام قبر قثم ابن العباس ابن عم رسول الله ﷺ الذى جاء إلى سمرقند عام

٥٥هـ/ ٦٧٥م مع سعيد بن عثمان بن عفان والذى استشهد اثناء فتحها، وهو المزار المعروف باسم مزار زنده (الأمير أو السلطان الحى).

ومنذ ذلك الحين كان ذوو المكانة فى المجتمع من الحكام والعلماء والأولياء يقبرون بجوار ذلك القبر الشريف، وقامت حوله مدرسة لتدريس العلوم الدينية، وقد وصفه ابن بطوطة قال: «وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباسين عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها، ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته والتتر يأتون وينذرون له النذور العظيمة ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد وعلى الصادر ولخدام الزاوية.

وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتنا من الرخام الخضر والسود والبيض، وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص، وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن، وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هناك وعلى حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر.

وكان يتبع ولاية سمرقند اثنا عشر رستاقا ستة منها جنوبى نهر زرقشان (أى نهر الصغد) وستة شمال النهر، ولكها مناطق زراعية خصبة وكان طول الرستاق الواحد مرحلتين وتمتد مساحة قراه نحو فرسخين، وكانت لمعظم الرساتيق قنوات من النهر لسقايتها بانتظام واشتهرت هذه الرساتيق بمختلف أشجار الفاكهة وبإنتاج اللوز والجوز.

وكانت بعض هذه الرساتيق مركزا لتجمع بعض القبائل العربية فقد نزل (أبو مزاحم سباع بن النضر) من قبيلة بكر بن وائل فى مدينة وذار وبنى بها مسجدا جامعا فى القرن الثالث الهجرى، وتكاثر أولاده بها حتى أصبحت معروفة بهم، وفى وذار حوقل كثيرا، أما الطريق التى تصل بين سمرقند وبخارى والتى تعرف باسم (الطريق الملكى) فقد كانت على الدوام ذات اهمية كبرى وتبلغ ٣٧ فرسخا وتقع على هذا الطريق مجموعة من القرى والمدن مثل (دبوسية وكرمينية

وطواويس) وقد أخذت طواويس اسمها العربى سنة ٩١هـ/ ٧١٠م عندما أبصر العرب الطواويس المنتشرة فى هذه القرية، أما الاسم القديم فهو ارفود الذى كان به معبد للنار فأبدله المسلمون بمسجد جامع، قد ذكر بارتولد أسماء عشرات القرى والمدن الصغيرة التابعة لسمرقند ومنها قرية خرتنك التى بها قبر الإمام محمد ابن إسماعيل البخارى صاحب الجامع الصحيح.

وقد نبغ من (سمرقند) على مدار التاريخ الإسلامى كثير من العلماء والأدباء منهم (محمد بن عدى بن الفضل) «أبو صالح» السمرقندى نزيل مصر المحدث.

المشهور، سمع من محدثى عصره فى دمشق ومصر وغيرها، وسمع منه جم عفير من العلماء، ومات عام ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ م ومنهم (أبو بكر أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى)سكن دمشق مدة، وكان يكتب بها المصاحف من حفظه واشتهر بقراءته للقرآن وتعليمه إياه، وسمع من محدثى دمشق، وسمع منه جماعة، وتوفى سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م ومنهم (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندى) أمام الهدى العلامة، من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين له تصانيف نفيسة، مثل (تفسير القرآن الكريم) و(عمدة العقائد) و(بستان العارفين) وهو فى التصوف و(تنبيه الغافلين) فى المواعظ و(خزائن الفقه فى الفقه) و(شرح الجامع الصغير) فى الفقه أيضا و(عيون المسائل) وهو مجموعة فتاوى فقهية و(النوازل من الفتاوى) و(دقائق الأخبار فى بيان أهل الجنة والنار) و(مختلف الرواية فى الخلافيات بين الأئمة أبى حنيفة ومالك والشافعى و(الرسالة فى أصول الدين) وكانت وفاته سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م.

ومنهم (شمس الدين السمرقندى) فيلسوف وأديب، ألف رسالة فى آداب البحث المعروفة بآداب السمرقندى، وهى توضح كيفية البحث والمناظرة (وقسطان الميزان) فى المنطق توفى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ومنهم (أبو القاسم السمرقندى) توفى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م وهو (محمد بن يوسف بن محمد العلوى الحسنى السمرقندى) فقيه حنفى، وعالم بالتفسير والحديث والوعظ، من أهل سمرقند، حج سنة ٥٤٢ وأقام عند عودته ببغداد، ومات بسمرقند، له تصانيف كثيرة منه (الفقه النافع) و(جامع الفتاوى) و(الملتقط) فى الفتاوى الحنفية و(بلوغ الأرب من تحقيق استعارات العرب و(رياضة الأخلاق) و(مصابيح السب) فى فروع الحنفية،

ومنهم (نجيب الدين السمرقندى) عالم بالطب، استشهد فى هراة (فى أفغانستان اليوم) لما دخلها التتار، من كتبه (النجيبيات) فى الطب (والأسباب والعلامات) فى الطب - أيضا - و(أصول تركيب المفاصل) و(مقالة فى كيفية تركيب طبقات العين) و(أغذية المرضى) و(الأغذية والأشربة للأصحاء) و(الصناعة) المقصود الطبية و(غاية الأغراض فى معالجة الأمراض) ومنهم (محمد بن أحمد السمرقندى) توفى ٥٧٥ هـ / ١١٨٠م من أهل سمرقند فقيه حنفى، من كتبه (تحفى الفقراء فى الفروع، ومنهم (علاء الدين السمرقندى) توفى سنة ١١٤٥ م فقيه مشهور، له كثير من الفتاوى وله كتاب (تحفة الفقهاء اشتهرت معه ابنته (فاطمة) وكانت فتاواه تخرج وعليها خط (فاطمة) وخط أبيها ومنهم (علاء الدين السمرقندى) مولده سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م وفاته ٥٥٢هـ / ١١٥٧ م وهو (محمد بن عبد الحميد بن الحسن الأسمندى السمرقندى) و(أسمند) إحدى قرى (سمرقند) وهو فقيه حنفى مناظر من فرسان الكلام رحل إلى بغداد، وناظر علماءها واشتهر هناك، وله عدة كتب، منها (مختلف الرواية)

فى الفقه، و(التعليقة) فى القه أيضاً - وبذل (النظر) فى أصول الفقه، (والهداية) فى أصول الأعتقاد، وله تفسير للقرآن الكريم ومنهم (أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندى) إمام زمانه فى الحديث، ولد فى (سمرقند) سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م،واستوطن (نيسابور)، وله (بحر الأسانيد فى صحاح المسانيد) جمع فيه مائة ألف حديث قال عنه (الذهبى) لم يقع فى الإسلام مثله) وتوفى سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨ م ومنهم (أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى) وهو من أئمة علم الكلام والعقائد وهو عند الأحناف بمنزلة (أبى الحسن الأشعرى) عند الشافعية، فقيه حنفى متكلم، رد على القرامطة والمعتزلة وألف فى ذلك كتاب كثيرة منها (أوهام المعتزلة) (الرد على القرامطة) وكتاب (التوحيد) و(مآخذ الشرائع) فى أصوال الفقه، وكتاب (الجدل) وكتاب وشرح كتاب الفقه الأكبر، المنسوب للإمام (أبو حنيفة نسب إلى «ما تريد») وهى محلة (حى) بسمرقند محدث ومؤرخ شهور، له تصانيف كثيرة، منها تاريخ سمرقند وتاريخ (استر آباد) وهى موطن أبيه، وهى أيضا من بلاد ما وراء النهر، توفى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠٦٨ م وله شرح الجامع الكبير و(النتف) فى الفتاوى.

وقد اشتهر من الأطباء الذين ينتسبون إلى (سمرقند) (بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسى السمرقندى) الذى قال عنه (ابن أبى أصبيعة) فى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) مجيد فى صناعة الطب، وله عناية بالنظر فى معالجات الأمراض ومداواتها، وله من الكتب: كتاب الأقراباذين، وهو تسعة وأربعون بابا استوعب فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة.

ومنهم (نجيب الدين محمد بن على بن عمر السمرقندى) المتقدم ترجمته، والذى قال عنه (ابن أبى أصبيعة) طبيب فاضل بارع، وله كتب جليلة، وتصانيف مشهورة، وليس المقصود هو التنويه بسمرقند وأشهر من أنجبتهم من العلماء والأطباء على مدار التاريخ.

ومن أهل سمرقند الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بهرام التميمى بالولاء الدارمى السمرقندى (الدرامى إلى درام بن مالك بطن كبير من تميم أحد أعلام الحديث وحفاظه صاحب سنن الدرامى المشهورة، انتقل فى البلدان لطلب علم الحديث فسمع من مشايخ هذا العم فى خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر ثم عاد إلى سمرقند وولى القضاء بعد أن حاول أن يمتنع من ذلك، واستقال بعد أول قضية تعرض عليه، ونحن نعلم كيف كان علماء هذه الأمة الأخيار ينفرون من ولاية القضاء فقد سجن (الإمام أو حنيفة) وضرب ليتولى القضاء للمنصور العباسى،

ورفض ذلك رفضا باتا، كما رفض أحيانا فى شئون القضاء، وكان بعض هؤلاء العلماء يرى الخلفاء وهو لا يعداون فى أموال المسلمين ويجعلون الفئ مغنما ويحتجزونه لأنفسهم ولولاتهم وأنصارهم من دون الأمة فيرون أن تولى القضاء لهم موافقة لهم على ظلمهم، فلذا ينفرون من الحكام والخلفاء ويبتعدون عن أبواب السلاطين رغم ما كان عليه كثير من هؤلاء الحكام من صلاح ظاهر.

وكان الإمام الدرامى أحد هؤلاء العلماء الذين يفرون من تولى القضاء ويتفرغون لنشر العلم وتدريسه، فكان أحد أعلام علم الحديث فى عصره (ولد سنة ١٨١ هـ وتوفى سنة ٢٥٥هـ بمرو أى ٧٩٧ وتوفى ٨٦٩ م له (المسند) فى الحديث و(الجامع الصحيح) المشهور باسم سنن الدارمى وكتاب (التفسير) القرآن الكريم.

علماءنسف

يقول ياقوت الحموى: (نسف) بفتح أوله وثانيه هى مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيجيون وسمرقند، خرج منها كثير من أهل العلم فى كل فن، وهى نخشب نفسها.

«قال الأصطخرى: وأما (نسف) فإنها مدينة، ولها قهندر (لفظ قهندز فارسى، ومعناه القعلة القديمة، وأختص بقلاع المدن) وربض (ضاحية) ولها أبواب أربعة، وهى على مدرج (طريق) بخارى وبلخ، وهى فى مستواه، والجبال منها على مرحلتين فيما يلى كش وأما بينها وبين جيجون فمفازة لا جبل فيها، ولها نهر واحد يجرى فى وسط المدينة وهى مجمع مياه كش، فيصير منها هذا النهر، فيشرع إلى القرى، ودار الأمارة على شط هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطرة... ولنسف قرى كثيرة ونواح، ولها منبران سوى المدينة، والغالب على قراها المباخس، وليس بنسف ورساتيقها نهر جار غير هذا النهر (نهر كشكادريا) وينقطع فى بعض السنة، ولها آبار تسقى بساتينهم ومباقلهم، والغالب على نسف الخصب» وقد ذكر بارتولد فى كتابه التركستان نفلا عن السمعانى وياقوت والمقدسى أسماء عشرات القرى التابعة لنسف.

مما تقدم من وصف (ياقوت الحموى) يبدوا أن (نسف) تقع اليوم - فى أوزبكستان جنوب (بخارى) فى الطريق إلى بلخ وبلخ فى أفغانستان وبينها وبين نهر جيجون (أمودايا) مفازة هى - كما تبدوا - جزء من صحراء (قره قوم) التى تمتد من حدود «وزبكستان) الشرقية إلى (تركمنستان) وقد خرب المغول نسف مثلما خربوا معظم المدن التى استولوا عليها ثم قامت باسم قرشى التى تعنى القصر بلغة المغول. وذلك لأن الخان كبك وهو من سلالة جغتاى ابن جنكيز خان بنى قصرا قريبا منها فى الإسلام وأصبحوا من حماته بعد أن كانوا ألد أعدائه.

وكم من مدن إسلامية اندثرت أو تغيرت أسماؤها ومعالمها فى المناطق، التى ترزخ تحت الاستعمار الروسى.. وقد ظهر من (نسف) العديد من الجهابذة العلماء. منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى:

قال عنه ياقوت: كان من أجلة العلماء وأصحاب الحديث الثقات كتب

الكثير، وجمع السنة والتفسير، وحدث عن، قتيبة بن سعد وهشام ابن عامر الدمشقى وحرملة بن يحيى المصرى وروى عنه كثير من العلماء ومات سنة ٢٩٤هـ/ ٦٠٦م.

ومنهم: الحسين بن خضر النسفى، أحد فقهاء الأحناف المشهورين:

تولى القضاء فى بخارى ونواحيها، وبها توفى سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٣م له مؤلفات عدة منها (الفوائد) و(الفتاوى) وجميعها فى الفقه.

وظهر من نسف: أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى:

المفسر، الفقيه، المشهور، صاحب المؤلفات الجليلة، والمصنفات العجيبة، مثل (مدارك التنزيل) فى تفسير القرآن الكريم، و(المنار) فى أصول الفقه، و(كشف الأسرار شرح المنار) والوافى فى الفروع، (الكافى شرح الوافى) و(عمدة العقائد فى العقائد) و(كنز الدقائق فى الفقه) و(المصفى) شرح منظومة أبى حفص النسفى فى الخلاف.

وتوفى الأمام أبو البركات سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م بعد أن ترك ثروة علمية لا يزال ينتفع بها إلى يومنا هذا.

ومنهم: أبو الفضل برهان الدين محمد بن محمد النسفى، أحد أعلام التفسير والأصول والكلام..

فقيه حنفى ولد سنة ٦٠٠هـ /١٢٠٣ م، فى (نسف) وانتقل منها فى طلب العلم وسكن (بغداد) وبها ظهر فضله وعلمه، وبها توفى سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٩م، بعد أن ترك مجموعة من المؤلفات فى التفسير والأصول وعلم الكلام، منها (الواضح) فى تلخيص تفسير الفخر اتلرازى المسمى بالتفسير الكبير، ومنها (الفصول) فى علم الجدل و(منشأ النظر) فى علم الخلاف، (والمقدمة النسفية)، أيضا، فى علم الخلاف، و(القوادح الجدلية) و(شرح الأسماء الحسنى) (وكتاب دفع النصوص والنقود).

ومنهم: خرج الحافظ عبد العزيز بن محمد بن عاصم النسفى النخشى:

ونسب إلى (نخشب) وهى (نسف) كما تقدم وصفه (ياقوت) بأنه أحد الأئمة فى الحديث.

سمع أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر، وأبا القاسم على ابن محمد الصحاف، وأبا طاهر محمد بن محمد بن عبد الرحيم الكاتب الأصبهانى، وغيرهم كثير من مشايخ الحديث فى عصرهم، وتنتقل فى البلدان، طلبا للحديث، ولعلو السند، كما يفعل مشايخ هذا العلم لا يألون فى ذلك جهدا ولا يدخرون فى ذلك وسعا، والأمة الإسلامية تعينهم على ذلك، ينتقلون من (نسف) أو (بخارى) إلى (سمرقند) و(مرو) و(نيسابور) و(بغداد) و(دمشق) و(مكة) و(المدينة) وكأنهم فى بلدهم لم يفارقونها، ففى كل مدينة يجدون أهلا وأحبابا، ويلقون بشاشة وترحابا لا يصدهم صاد، ولا تطاردهم جوازات واقامات، بل هى دار الإسلام، دار واحدة ممتدة، أينما ذهب وجد أخوة وأحبابا، ووجد شيوخا وطلابا.

قدم الحافظ عبد العزيز بن محمد النسفى إلى دمشق واستقر بها، وروى عنه خلق كثير منهم: عبد العزيز الكتانى، وأبو بكر الخطيب، ثم عاد الحافظ عبد العزيز إلى موطنه (نسف) (نخشب) وبها مات، ولما يبلغ الأربعين، وذلك سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م.

ومنهم: أبو العباس جعفر بن محمد المعتز المستغفرى النسفى:

ولد فى نسف سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١ م وبها كانت وفاته سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م خطيب نسف وأمامها.. فقيه ومحدث ومؤرخ.. وأما فى الخطابة فقد كان لا يبارى.. وله مصنفات كثيرة منها كتاب «الدعوات» جمع فيها الأحاديث الواردة فى الدعاء وكتاب فضائل القرآن «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل » «والمسلسلات».

وهى أيضا فى الحديث.. وله كتاب «الزادات» وهى زيادات أضافها على كتاب «المختلف والمؤتلف» لعبد الغنى بن سعيد، وله فى التاريخ عدة كتب منها «تاريخ نسف» وتاريخ كش....

ويؤخذ عليه أنه يروى أحيانا بعض الأحاديث الموضوعة من غير أن يبين حالها.

علماء بيهق:

تقع بيهق على المجرى الأسفل هارى (هارى رد) وكان يسمى نهر الروذ لأن مرو الروذ تقع عليه. الذى ينبع من جبال أفغانستان والذى يشكل الحدود بين إيران وتركمنستان. فإذا دخل نهر هارى تركمنستان تغير اسمه إلى تادزهن وهنا يجد رافدا من مشهد فى إيران (وهى مدينة طوس القديمة وسميت مشهد لأن بها مشهد إمام على الرضا).

وتقع بيهق فى الجزء الواقع فى تركمنستان السوفيتية حيث تزول مياه النهر إلا عند اشتداد الأمطار وفيضان النهر.

وهى غير موجودة اليوم فقد اندثرت تلك المدينة التى وصفها (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان بقوله:

بيهق أصلها بالفارسية بيهة ومعناها (الأجود) وهى ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور تشمل عى ٣٢١ قرية بين نيسابور وقومس وجوين بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخا وكانت قصبتها خسر وجرد ثم صارت سابزوار.. وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصى من الفضلاء والعلماء والفقهاء والأدباء... ومن أشهر أئمتهم:

١ - الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن عبد الله بن موسى البيهقى:

من أهل خسر وجرد عاصمة بيهق، صاحب التصانيف المشهورة ولد سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م وهو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الورع من أجل أصحاب أبى عبد الله الحاكم والمكثرين عنه - ثم فاقه فى فنون من العلم تفرد بها.

رحل إلى العراق وطوف فى الأفاق وألف من الكتب ما يبلغ قريبا من ألف جزء مما لم يسبق إلى مثله. توفى فى نيسابور سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م ونقل جثمانه إلى بيهق حيث دفن بها، صنف زهاء ألف مصنف ومن تصانيفه كتاب (المبسوط) وكتاب (دلائل النبوة) وكتاب (مناقب الشافعى) وكتاب (البعث والنشور). وهو

أول من جمع نصوص الشافعى فى عشرة مجلدات. وكتاب الأداب وكتاب فضائل الصحابة وكتاب فضائل الأوقات وشعب الإيمان وغيرها كثير لا يحصى. قال عنه إمام الحرمين: ما من شافعى إلا وللشافعى عليه منه إلا البيهقى فإن له المنة والفضل على الشافعى لكثرة تصانيفه فى نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آراءه. وقال عنه الذهبى: لو شاء البيهقى أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف.

وممن نبغ من بيهق على بن الحسين بن فطيمة البيهقى:

من أهل خسر وجرد قصبة بيهق من تلاميذ الإمام أبو بكر أحمد بن حسين المتقدم ذكره وقد حرص على طلب العلم وحفظ رغم تقدم سنه فلما أصيبت يده فى علة فقطعت أصابعه فكان يكتب بأصابع قدمه كتابة واضحة مقروءة. تولى القضاء فى خسر وجرد وبها كانت وفاته سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م - وكان مولده سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م. وممن ينسب إليها: إسماعيل بن الحسين بن عبد الله البيهقى.

فقيه حنفى زاهد له عدة كتب فى الفقه الحنفى توفى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م. له الشامل فى فروع الحنفية والكفاية مختصر شرح القدورى.

وممن ينسب إليها: أحمد بن على بن محمد البيهقى (أبو جعفر)

لغوى عالم بالقراءات له (المحيط بلغات القرآن) و(تاج المصادر) توفى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م ومنها على بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقى مؤرخ وفقيه وفلكى ورياضى وفيلسوف وباحث موسوعى صنف ٧٤ كتابا وتوفى سنة ٥٤٣هـ ١١٣٨ م ومنها محمد بن الحين البيهقى (أبو الفضل) كان كاتب الأنشاء فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنزى... جميل الأسلوب له مؤلفات فى التاريخ وكانت وفاته سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م.

دور علماء خوارزم فى نشر الإسلام:

وكانت (خوارزم) (تتصل بجهاتها الشمالية الغربية بسهول (الأستيبس) حيث كانت تعيش قبائل (البلغار) و(الخزر) فى حوض نهر (الفلوجا) واتصل بنهم أهل خوارزم وأقاموا المستعمرات الإسلامية، ونشروا الإسلام بين (بلغار الفولجا) وهم يتصلون بروابط قوية مع (بغار نهر الطونة) «الدانوب» الذين كونوا مملكة (بلغاريا)

القوية (المجر) فى الغرب، وكان الروس وهم من القبائل النورماندية القادمة من السويد، لا يزالون على بداوتهم وكان هجومهم على حوض نهر الفولجا دافعا للسلب والنهب، ولكنهم أخيرا - أستطوطنوا تلك المناطق، وانصهروا فى العنصر الصقلى البلغارى، وتحولوا إلى المسيحية الأرثوذكسية التى كانت عاصمتها (القسطنطينية) (اسلامبول أو أسطمبول بعد أن دخلها محمد الفاتح) وأصبحوا يشكلون سدا فى وجه انتشار الإسلام ن الذى دخل بواسطة أهل خوارزم إلى بلاد (الخزر) طلب أهل (الخزر) العون من أهل (خوارزم) فاشتراط عليهم الخوارزميون أن يسلموا، فأسلموا، وأنقذوهم من غزو الروس الإجلاف، وذلك عام ٣٦٥هـ / ٩٦٥ م، كما كان لسلاطين (خوارزم) الذين كانوا يدعون بالخانات أثر عظيم فى نشر الإسلام، فى مناطق الخزر، وقد توجه السلطان (مأمون بن محمد) من (الجرجانية) «كركانج» إلى بلاد (الخزر) ونشر فيها الإسلام.

وكان سكان (الخزر) يدينون بديانات مختلفة، ولكن السيطرة والحكم كانا لليهود، وكان دخول اليهودية إلى (الخزر) آخر صفحات التبشير بالدين اليهودى، الذى تحول - بعد ذلك - إلى دين قومى لجماعة من الناس، تدعى بأنها من نسل يعقوب - عليه السلام - وبما أن اليهودية انتشرت فى شعوب كثيرة، من قبل، منهم أهل اليمن والأحباش، وأخرهم (الخزر) فإن الرغم بأن اليهود هم - فقط - من نسل يعقوب أمر لا يقره التاريخ مطلقا.

وكان ملك (الخزر) فى عهد (هارون الرشيد) يهوديا على الرغم من أن كثيرا من رعاياه قد تحولوا - فعلا - إلى الإسلام، بواسطة الدعاة إلى الله وبخاصة من أهل خوارزم.

وكانت نصرة أهل (خوارزم) لسكان (الخزر) عندما هاجمهم الروس عام ٣٦٥هـ/ ٩٦٥م هى الحلقة الأخيرة فى قصة إسلام سكان الخزر (طواعية).

ولهذا يغزو الفضل فى إنتشار الإسلام فى هذه المناطق إلى الخوارزميين.

وقد قامت فى (خوارزم) دولة قوية امتد سلطانها ونفوذها، بعد أن ضعفت الدولة السامانية ولكن هذه الدولة القوية اعتراها الترف والضعف - بعد ذلك - فهاجمها (جنكيز خان) على الملك، فقامت دولهم المجزأة التى استطاع أن يقضى عليها (تيمور لنك).

وقد كان للخوارزميين - أيضا - فضل انتشار الإسلام فى جيران الخزر وهو (بلغار الفولجا) وقد سجل التاريخ أن وفدا من مسلمى (البلغار) انطلقوا إلى بغداد، على عهد الخليفة العباسى (المقتدر) سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م وطلبوا من الخليفة أن يرسل لهم العلماء لتعليمهم الإسلام، كما طلبوا منه أن يرسل لهم مجموعة من الخبراء العسكريين ليبنوا لهم القلاع والاستحكامات العسكرية، حتى يصدروا غزوات الروس الهمج.

وكان ممن أرسلهم الخليفة (المقتدر) العالم (ابن فضلان) الذى دون رحلته تلك ونقل عنها (ياقوت الحموى) فى كتابه القيم(معجم البلدان) وفى أوائل القرن العشرين وجدت نسخة من رحلة (ابن فضلان) فى مكتبة (مشهد) بعد أن عدت من المفقودات وكان خط سير الرحلة من بغداد إلى (بخارى) ثم إلى (خوارزم) ثم إلى بلاد (البلغار)، دليلا على خط سير انتشار الإسلام، الذى انتشر مدن - أولا - فى مدن العراق إلى خراسان، ثم إلى بخارى وخوارزم، ثم إلى بلاد البلغار.

وقد وصفهم (ابن فضلان) فى رحلته بأنهم من الصقالبة، وإن كان الباحثون المحدثون يرون أنهم نتيجة اختلاط الصقالبة بالأتراك وبخاصة منهم الخوارزميون، الذين كلن لهم الفضل الأول فى نشر الإسلام بينهم.

وقد سيطر (البلغار) المسلمون على مناطق واسعة من (ديليكى استوك) إلى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) إلى (أوفا) وبذلك كان تهر (الفولجا) بأكمله تحت سيطرة (البلغار) المسلمين، واستمرت دولتهم من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) على القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، عندما ابتدأوا فى التحول إلى إمارات متعددة مختلفة.

بدأ الروس بعد ذلك - فى الاستيلاء على مناطق منها، حتى جاء (تيمور لنك) فأخضعها جميعا لسلطانه، وانتشرت فى (البلغار) اللغة التركية التى تكتب بالحرف العربى.

وقد ذكر (بارثولد) فى كتابه (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) أن أنتشار الإسلام بين القبائل التركية الدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - فى الخزر، وبلاد البلغار، إنما كان يتم - أساسا - على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، الذين كانوا

ينطلقون إلى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس وإخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الأقوام الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الإسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك (بارثولد) فى كتابه (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) أن انتشار الإسلام بين القبائل التركية البدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - فى الخزر، وبلاد البلغار، إنما كان يتم - أساسا - على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، الذين كانوا ينطلقون إلى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس وإخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الأقوام الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الإسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك قصة إسلام جماعة من الترك الجفاة الذين يعيشون حياة البدارة، فى سهوب (القرغيز) وغيرها عندما أسلم (ساتوق يغراجان)، وأسلم معه مائتا ألف أسرة (كانت فى الخيام) وذلك على يد جماعة من الدعاة إلى الله من المتصوفة، ومن أهل (خوارزم) وغيرها من المناطق المجاورة.

وقد كان يطلق على (بغراجان) لقت (قاراحان) وهو (سلطان) دولة القاراخنيين التى وصفها محمود الكاشغرى (نسبة إلى كاشغر فى تركستان الشرقية) وكان دخول القاراخنيين فى الإسلام عام ٣٢٣هـ/ ٩٤٣م انتصارا عظيما للإسلام، حيث دخل مليون شخص فى فترة وجيزة فى الإسلام طائعين، على يد هؤلاء الدعاة، من الصوفية، وأنهم أدخلوا شعبين كامليين إلى الإسلام هما شعب (بلغار الفولجا) وشعب (القارخنيين) فى تركستان الشرقية (كاشغر وما حولها).

وقد أسلم قسم كبير من قبائل (الغز) الذين كانوا مقيمين عند مصب نهر سيحون (سرداريا) وذلك - أيضا - بفضل الدعاة إلى الله من الخوارزميين وغيرهم.

وبذلك سجل الإسلام انتصارا عظيما، بدخول شعبين من شعوب الأتراك، وهما (الشعب القراخانى) و(الشعب الغزى) إلى الإسلام (فى القرن العاشر الميلادى) وكان للخوارزميين، فى ذلك كله، جهد مبارك وفضل عظيم، بالإضافة إلى نجاحهم فى نشر الإسلام لدى (بلغار الفولجا) و(الخزر).

وفى العصر الحديث تحولت التركستان إلى خانيات صغيرة وكانت خوارزم إحدى هذه الخانيات، وأصبح إسمها خيوة، وقد سقطت هذه الخانية فى يد الروس، وذلك عام ١٩٢٤م عندما زحفت عليها الجيوش الحمراء، وأخضعتها (خوارزم واقعة فى جمهورية أوزبكستان).

وقد نبغ من أهل خوارزم، عدد كبير من العلماء والفلاسفة والأطباء والفلكيين والرياضيين حتى أن علم (اللوغارتيمات) دائما ينسب فى الواقع إلى الخوارزمى.

إعلام خوارزم:

وفيما يلى سنترجم باختصار لبعض هذه الأعلام:

١ - داود بن رشيد الخوارزمى:

ولد هذا المحدث فى (خوارزم)، وانتقل إلى دمشق وغيرها من عواصم الإسلام، ودرس علم الحديث، على يد أكابر علماء زمانه، مثل الوليد بن مسلم، وبقية بن الوليد، وصالح بن عمرو وتلقى وروى عنه الإمام البخارى، صاحب الجامع الصحيح، الذى سبق أن ترجمنا له فى علماء بخارى، والإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، صاحب صحيح مسلم، وأبو القاسم البغوى، وتوفى فى دمشق سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م.

٢ - أبو طالب طاهر جعفر المخزومى الخوقندى الخوارزمى:

وهو - كما ترى من نسبه من أشراف قريش، من قبيلة بنى مخزوم، التى هاجر أبناؤها كم هاجر أبناء القبائل العربية الأخرى، لنشر الإسلام، حتى وصلوا (خوارزم) وأقاموا بها ولقد ولد صاحب الترجمة فى (خوارزم) فى مدينة (خوقند) وتلقى الحديث على يد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأشتهر بقراءة القرآن وبالأدب، وسكن سمرقند، وتوفى بها سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م، وروى عنه الحديث ابنه محمد بن طاهر.

٣ - أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى:

ولد أبو الريحان البيرونى فى خوارزم سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م، ثم انتقل إلى ضاحية من ضواحيها، وتدعى (بيرون) فنسب إليها، وتوفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م يعد (أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى) أحد نوادر العقل البشرى ونوابغه، شارك باقتدار - فى معظم العلوم المعروفة فى عصره، وألف فيها المؤلفات العديدة الهامة، واشتهر بالفلسفة والفلك والرياضة والتاريخ، وبلغت فهارس أسماء مصنفاته - كما يقول ياقوت الحموى - ستين ورقة، وكان ضليعا فى اللغات الشرقية، فإلى جانب إجادته للغته الخوارزمية كان يجيد اللغات الفارسية، والهندية، والعبرية، والسريانية، أما اللغة التى لم يكن يكتب إلا بها فهى اللغة العربية، التى عشقها ودافع عنها.

يقول فى كتابه (الصيدلة).

(ديننا والدولة عربيان وتوأمان، ترفرف على أحدهما القوة الألهية، وعلى الآخر اليد السماوية).

وكم احتشد طوائف من التوابع، وبخاصة منهم الجيل والديلم فى لباس الدولة جلابيب العجمة، فلم يتفق لهم فى المراد سوق، ما دام الأذان يقرع آذانهم، كل يوم خمسا وتقاوم الصلوات بالقرآن العربى المبين خلف الأئمة صفا صفا، ويخطب لهم فى الجوامع بالإسلام غير منفصم، وحصنه غير منثلم، وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت، وحلت فى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها، التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها).

ثم يقول: (واقيس هذا بنفسى، وهى مطبوعة عل لغة (الخوارزمية) لو خدل بها علم، لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة فى العراب، ثم متنقلة إلى العربية، والفارسية، فأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف، والهجى بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسى، كيف ذهب رونقه وكسف باله، وأسود وجهه، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكروية، والأسمار الليلية).

فأين اللغة العربية - اليوم - لم تعد لغة العلوم والفنون، بل أصبحت لغة العلم فى جامعاتنا ومدارسنا هى الإنجليزية أو الفرنسية، وانظروا إلى العرب أنفسهم كيف يدرسون الطب، أو الفلك، أو النبات، أو الجيولوجيا، أو أى علم من العلوم (غير العلوم الشرعية) تجدهم فى ذلك يدرسونها بلغة الأفرنج، ويفتخرون بذلك، ولا يريدون أن يعيدوا إلى لغتهم، التى وسعت كتاب الله لفظا وغاية، وما ضاقت عن أى به وعظات وكم من مؤتمرات قد عقدت لإعادة تدريس العلوم باللغة العربة، ولكنها - للأسف - إلى الآن، لم تسفر عن شىء وأنت ترى كيف كان (البيرونى) يشهد للغة العربية بأنها لغة العلم وأن الكتابة العلمية بغيرها لا تقوم بالغرض، ولا تفى بالمقصد، ويتحدث عن اللغة الفارسية يذهب رونقه، ويسود وجهه، ويزول الانتفاع به، ويعد الفارسية لغة للأسمار والحكايات، أما لغة العلم فهى العربية - بلا جدال.

ومن مؤلفات هذا العالم المؤرخ الجغرافى الفلكى الفيلسوف:

(الآثار الباقية عن القرون الخالية).

و(تاريخ الهند).

وجميعها فى التاريخ.

وله فى الفلك والجغرافيا:

(القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم والجغرافيا).

و(الإرشاد فى أحكام النجوم).

و(التفهيم لصناعة التنجيم).

و(تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن).

وله فى شرح عقائد أهل الهند (تحقيق ما للهند من مقولة فى العقل أو مرزوله)

وله فى الهندسة والرياضة كتاب (استخراج الأوتار).

وغيرها كثير، مثل (الجماهر فى معرفة الجواهر)

و(كتاب الصيدلة).

و(كتاب الاستيعاب فى صفة الأسطرلاب) هو آلة فلكية لمعرفة مواقع النجوم.

و(كتاب لوازم الحركتين) الذى صنفه للسلطان مسعود، والذى قال عنه ياقوت الحموى (وهو كتاب جليل لا مزيد عليه اقتبس أكثر كلماته من آيات من كتاب الله عز وجل).

وللبيرونى كتاب فى الشعر والأدب سماه (مختار الأشعار والآثار). وله شرح لديوان (أبى تمام) أعجب به ياقوت، وقال أنه رآه بخط المؤلف.

وكان البيرونى - أيضا - شاعرا مجيدا، قال عنه الأديب الناقد الصفدى: (يا عجب كل العجب من نظم هذا الرجل هذا النظم، إذ ليس هذا فنه، ولا عرف به فهذا شعر جيد).

وقال عنه ياقوت فى (معجم الأدباء) أنه كان أديبا أريبا لغويا، ولذا ذكره فى (معجم الأدباء).

وهكذا كان (البيرونى رحمه الله - قمة من القمم، التى امتلأ بها تاريخ بلاد ما وراء النهر (التركستان) التى كانت ترزخ - تحت الاستعمار الروسى، فأين هذا الماضى المشرق المجيد مما عليه المسلمون - اليوم - من تخلف وضياع وتمزق؟

٤ - أبو عبد الله محمد الخوارزمى:

يعد (أبو عبد الله الخوارزمى) أقدم كاتب مسلم ألف كتابا موسوعيا (دائرة معارف) سماه (مفتاح العلوم) وتكلم فيه عن جميع علوم عصره، من الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا، وعلوم الهيئة وغيرها من علوم ذلك الزمن. أهدى كتابه إلى وزير السلطان (نوح السامانى) عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م.

٥ - أبو بكر الخوارزمى:

ولد فى خوارزم عام ٣٢٤هـ / ٩٣٥م، واشتهر بالأدب، والشعر، والكتابة، وانتقل إلى الشام وأقام بها، وخلد اسمه برسائله الأدبية المسجعة، التى جمعت المدائح، والمراثى، والأهاجى والنظرات الأدبية والحكمية، وطبعت رسائله عدة مرات، وتوفى فى الشام عام ٣٨٣هـ / ٩٩٣ م.

٦ - محمد بن موسى الخوارزمى:

واضع علم الجبر والمقابلة ومبتكر حساب اللوغاريتمات وهو تحريف لاسمه كما يفعل الغربيون عادة، وهو أول من حل معادلات الدرجة الثانية الجبرية. كما اشتهر بعلوم الفلك والتنجيم، وكان أحد الفلكيين (الذين عملوا فى مرصد (المأمون). وله كتب فى علم الفلك منها (الزيج) و(العمل بالأسطرلاب) وقد اشترك فى قياس محيط الأرض أيام المأمون مع مجموعة من العلماء المسلمين... ويعتقد أن مولده كان سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م وكانت وفاته سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م .

٧ - محمد بن العباس الخوارزمى:

ولد سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م وتوفى سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م. يعد محمد بن العباس الخوارزمى من أئمة الكتاب البلغاء، ثقة فى اللغة، وفى معرفة الأنساب، وهو صاحب الرسائل المعروفة برسائل الخوارزمى وله ديوان شعر، وهو ابن أخت المفسر المؤرخ المشهور الإمام ابن جرير الطبرى، أمه من طبرستان، وأبوه من خوارزم واستوطن نيسابور، ودفن بها عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.

٨ - شمس الدين محمد بن إسحاق الخوارزمى:

عالم حنفى، انتقل من خوارزم إلى مكة، وأقام بها، وألف كتاب (إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاث والبيت العتيق) واستخدم مهارته الفائقة فى الرسم فى تصوير هذه المساجد، ورسمها بمهارة واقتدار (وكان يبيع لوحاته على الحجاج) فانتشرت فى بقاع الأرض وتوفى سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م.

٩ - محمد بن على الهراش الكاثى:

نسبة إلى كاث من مدن (خوارزم)، وهو أديب عالم باللغة وآدابها، واشتهر برسائله البليغة وله عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبى) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١٠ - الشريف شرف الدين إسماعيل:

من أهل خوارزم، اشتهر بالطب، وكان كما وصفه ابن أبى أصيبعة - فى (طبقات الأطباء) طبيبا عالى القدر، وافر العلم، وجيها فى الدولة، وكان الطبيب

الخاص للسلطان (علاء الدين محمد خوارزم شاه) وقد ألف عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبى) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١١ - محمد بن محمد الكردري:

الخوارزمى البرازى فقيه حنفى من كردر قرية (بخوارزم) تنقل فى بلاد القرم والبغار وحج واشتهر من كتبه (لجامع الوجيز) فى فقه الحنفية والمناقب الكردرية ومختصر فى تعريفات الأحكام توفى سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م.

١٢ - برهان الدين ناصر بن عبد السيد الخوارزمى المطرزى:

عالم فقيه لغوى من فقهاء الأحناف ولد فى الجرجانية (خوارزم) سنة ٥٣٨هـ/ ١١١٤م ووفى بها سنة ٦٤٠هـ/ ١٢١٢م كان رأسا فى الاعتزال من كتبه (الإيضاح) و(شرح مقامات الحريرى) و(المصباح) فى النحو و(المعرب) فى اللغة و(الإقناع بما حوى تحت القناع).

١٣ - الإمام الزمخشرى:

بهذا الإمام العظيم نختتم ذكر من اشتهر من علماء خوارزم وقراها ن وقد ولد (جار الله محمود بن عمر الزمخشرى) عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م فى قرية (زمخشر) وهى من قرى (خوارزم) وإليها ينسب، وقد سافر إلى مكة، لطلب العلم، وجاور بها، فلقب جار الله، ثم تنقل فى بلدان العالم الإسلامى، وعواصم العلم، ينهل من ينابيعها الفياضة، ثم عاد إلى الجرنية (كركانج) عاصمة خوارزم وأقام بها ينشر العلم، ويؤلف حتى وافاه الأجل عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٤م..

أشهر كتبه (الكشاف) فى تفسير القرآن، وهو أحد أهم المراجع فى تفسير القرآن الكريم، وقد توسع فيه فى الأمور اللغوية، وينكر عليه ميله للمعتزلة، وأخذه بآرائهم ودفاعه عنهم، وعلى الرغم من ذلك، فإن (الكشاف) لا يستغنى عنه طالب علم. ومن أشهر كتبه «المفضل» فى النحو شرحه أبو حيان فى أربعة أجزاء.

وله كتب فى اللغة، منها كتابه (أساس البلاغة) (ومقدمة فى اللغة) وله كتب فى الجغرافيا مثل كتابه (الجبال والأمكنة والمياه) وله كتاب جمع فيه الأمثال وسماه (المستعصى فى المثال) و(القسطاس فى العروض) و(ربيع الأبرار) فى الأدب، (ونكت الأعراب فى غريب الأعراب) والنحو و(أطواق الذهب) و(أعجب العجب فى شرح لامية العرب) وله إلى جانب ذلك - دراية واسعة فى الحديث وله كتاب (الفائق فى غريب الحديث) وهو يدل على تبحره وتوسعه فى علوم الحديث.

وله إلى جانب ذلك كله ديوان شعر جيد، وله معجم عربى فارسى سماه (المقدمة).

الحياة الثقافية
فى أسفيجات وفاراب وإقليم الشاش وفرغانة

أسفيجاب:

اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان (الشرقية) ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة.. كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياهها جارية ورياضا مزهرة.. ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلدا لا خراج عليه إلا أسفيجاب لأنها كانت ثغرا عظيما فكانت تعفى من الخراج وذلك ليصرف أهلها خراجها فى ثمن السلاح وعلى المجاهدين والمرابطين فى هذا الثغر... وكذلك كانت المدن القريبة منها مثال طراز وصبران وفاراب وسانيكيث... ثم أتت على تلك النواحى حوادث الدهر وصروف الزمان عندما خربها خوارزم شاه محمد بن تكش عندما خانه بعض أمرائها... وجاءت الطامة الكبرى بورود التتار عليها سنة ٦١٦هـ فأهلكوا من بقى من أهلها وحطموا ديارها وقتلوا رجالها ونساءها فلم يبق من تلك الجنان المندورة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة (وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة... والإسلام فيهم غض يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه (تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاد ولكن يفعل ذلك لعباده ما يشاء ويحكم ما يريد).

وقد خرج من اسفيجاب طائفة من أهل العلم فى كل فن منهم:

أبو الحسن على بن منصور المقرئ المؤدب الأسفيجابى بعد سنة ٣٨٠هـ.

كما خرج منها جماعة من الفضلاء:

علماء فاراب:

(١) إسماعيل بن حماد الجوهرى، المتوفى سنة ٣٩٣هـ:

وهو من أئمة اللغة العربية، وصاحب كتاب (الصحاح) وله - أيضا - كتاب فى العروض ومقدمة فى النحو، سافر من بلدة (فاراب) صغيرًا، حتى وصل (العراق) ومنها سافر من بلدة (فاراب) صغيرًا، حتى وصل (العراق) ومنها سافر إلى (الحجاز) ثم عاد إلى (نيسابور) بخراسان، وبها أقام، واشتهر، وظهرت علومه اللغوية وأخذ عنه جم غفير من العلماء.

كان مهتما بالطيران، وقد صنع لنفسه جناحين من خشب وصعد إلى سطح دار هونادى فى الناس، لقد صنعت ما لم أسبق إليه، وسأطير ثم ظهر عليه أهل نيسابور ينظرون إليه فتأبط جناحيه وسقط قتيلاً.

(٢) إسحاق الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠هـ:

وهو أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، صاحب (ديوان الأدب) فى اللغة خال إسماعيل بن حماد الجوهرى، وقد انتقل إلى اليمن، وأقام بزبيد.

(٣) أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى، المتوفى سنة ٣٣٩هـ:

وهو الفيلسوف، الحكيم، الفلكى، الرياضى، الطبيب، المؤرخ، المشهور، أعظم فلاسفة المسلمين، وأول من نقل كتب (أرسطو) وشرحها، وعلق عليها، وسمى بالمعلم الثانى لأن «أرسطو» كان يدعى المعلم الأول.

انتقل إلى بغداد من (فاراب) وعاش بها، ثم انتقل إلى (دمشق) وبقى بها إلى حين وفاته، وكا يجيد اللغات الشرقية المعروفة فى عصره، وهى: العربية، والفارسية، والتركية ولغة الهند، كما كان يجيد اللغة اليونانية.

تعلم الفلسفة على يد (يوحنا بن جيلان) وتتلمذ على يد (عبد الله بن محمد بن سلمة المقدسى الفارابى) وسمى الحديث بدمشق من (هشام بن عمار) و(عبد الله بن أحمد بن بشير) و(عباس بن الوليد الخلال) و(أبى محمد بن عبد الرحمن الدمشقى) و(دحيم).

وقد روى عنه الحديث (أبو بكر وأبو زرعة) ابنا (أبى دجانة)، (وأبو بكر بن المقرى) وغيرهم.

قال عنه (ابن أبى أصيبعة) فى كتابه (عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء):

(وكان رحمه الله فيلسوفًا، وإماما فاضلاً، قد أتقن العلوم الحكيمة وبرع فى العلوم الرياضية، زكى النفس، قوى الذكاء، متجنبا عن الدنيا، مقتنعا منها بما يقوم بأوده يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة فى صناعة الطب، وعلم الأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها).

وقد كان (الفارابى) - فى أول مرة - ناظرا فى بستان فى دمشق، فقيرا - يسهر الليل، يقرأ، ويكتب، ويؤلف، على ضوء قنديل حارس البستان، ثم ظهر فضله، وعظم شأنه، واشتهرت تصانيفه، وكثر تلاميذه، واتصل بسيف الدولة، وأكرمه إكراما بالغا، وسافر (الفارابى) قبيل وفاته بعام (أى عام ٣٣٨) إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق، وتوفى بها سنة ٣٣٩، وصلى عليه سيف الدولة. ويذكر من فضله وزهده أنه لم يكن يتناول شيئا مما ينعم به عليه سيف الدولة، سوى أربعة دراهم، فى اليوم، يقتات ها هو وأهله.

وكان - فى أول أمره - قاضيا، ثم ترك القضاء، ليتفرغ لعلوم الفلسفة، والرياضة والفلك، وغيرها.

وكان له فى علم الموسيقى باع طويل، وهو أول من اخترع القانون، قال عنه (ابن أبى أصبيعة): ويذكر أنه صنع آلة غريبة يستمع منها ألحانا بديعة يحرك بها الانفعالات). ويقال أنه كانت له القدرة على العزف عليها، فيبكى سامعه، ثم يشجيه، ثم ينميه، ويخرج (الفارابى) وسامعه نائما.

وقد شرح (الفارابى قصة ظهور الفلسفة (اليونانية) وكيف انتقلت إلى الإسكندرية، ثم كيف أخفت الكنيسة كتب (أرسطو) وغيره من فلاسفة الإغريق،

وكيف حاربتها حربا شعواء فى روما، والإسكندرية وجميع أراضى الإمبراطورية الرومانية، إلا شيئا يسيرا من المنطق، استعانوا به فى جدلهم، حتى ظهر الإسلام.

وكانت كتب (أرسطو) مخفية عند رجل، فنسخها منه رجلان، أحدهما من (مرو) والآخر من (حران) فأما الذى من (مرو) فتعلم منه (إبراهيم المروزى) و(يوحنا بن جيلان) وأما (الحرانى فتعلم منه (قويرى) وقام (قويرى) بنشر كتب (أرسطو) وتعليمها، وكذلك فعل (إبراهيم المروزى) و(يوحنا بن جيلان) وتعلم (أبو نصر الفارابى) من (يوحنا بن جيلان) ثم أتم كتب الفلاسفة قراءة، دون معلم، وكانت قراءته، على (يوحنا) فى بغداد، أيام المقتدر.

وصار (الفارابى) أشهر من شرح كتب الفلسفة اليونانية فى التاريخ، وبخاصة كتب (أرسطو) ولقب بالمعلم الثانى، لأن (أرسطو) كان يحمل لقب المعلم الأول. ولم يكتف الفارابى بذلك، بل أضاف إلى مختلف العلوم إضافات جديدة، وهو أول من أوضح علم المنطق بعبارة سهلة، وأول من وضع موسوعة علمية وافية، وأسماها (إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها).

قال عنه (ابن أبى أصيبعة): (ثم له - بعد ذلك - كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، لا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه).

ويقول (ابن أبى أصيبعة) (ولا أعلم كتابا أجدى على طالب الفلسفة منه).

وقد استفاد (ابن سينا) من كتب (الفارابى) فائدة عظيمة، وقال أنه استغلق عليه فهم الألهيات من كتب الفلسفة، حتى عثر على كتاب(الفارابى) فى العلم الإلهى، فحل له أشكالها وأبان غامرها، وقرأ (ابن سينا كتب الفارابى) فى الفلسفة، وعليها تتلمذ.

(وللفارابى) دعاء، وابتهال أورده (ابن أبى أصيبعة) وسننقله عنه، لأنه يوضح مذهب الفارابى، وإيمانه بالله على طريقة (الفلاسفة) المسلمين، الذين خلطوا العقيدة الإسلامية ببعض (آراء أرسطو) و(أفلاطون) و(أفلوطين) التى لا تتناقض العقيدة مناقضة ظاهرة، وإليك هذا الدعاء البليغ العجيب:

(اللهم إنى أسألك يا واجب الوجود (وهو تعبير فلسفى شاع عند المسلمين

بعد أن أدخله الفارابى) ويا علة العلل قديما لم يزل، أن تعصمنى من الزلل، وأن تجعل لى من الأمل ما ترضاه لى من عمل، اللهم أمنحنى ما أجتمع من المناقب، وارزقنى فى أمورى حسن العواقب، نجح مقاصدى والمطالب، يا اله المشارق والمغارب، اللهم ألبسنى حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الأتقياء، اللهم أنقذنى من عالم الشقاء والفناء، واجعلنى من أخوان الصفاء، وأصحاب الوفاء، وسكان السماء مع الصديقين والشهداء، أنت الله لا إله إلا أنت يا علة الأشياء، ونور الأرض والسماء، أمنحنى فيضا من العقل الفعال يا ذا الجلال والأفضال. (وهذه فلسفة أفلاطون وأرسطو وأفلوطين التى تقول بأن الله خرج منه. العقل الفعال، ومن العقل الفعال ظهرت الكواكب السبعة السيارة، ومن الأجرام السبعة ظهرت بقية الأجرام السماوية ومنها ظهرت الأرض والمخلوقات، حسب نظرية الفيض المتسلسلة عبر عشر مراحل التى جاء بها أفلوطين).

هذب نفسى بأنوار الحكمة، أوزعنى شكر ما أوليتنى من نعمة، أرنى الحق حقا، وألهمنى إتباعه، والباطل باطلا، وأحرمنى اعتقاده، هذب نفسى من طيئة الهيولى (يعود الفارابى لتعبيرات أرسطو طاليس) إنك أنت العلة الأولى:

يا علة الأشياء جمعا والذى
كانت به عن فيضه المتفجر
رب السموات الطباق ومركز
فى وسطهن من الثرى والأبحر
إنى دعوتك مستجيرا مذنبا
فاغفر خطيئة مذنب ومقصر
هذب بفيض منك رب الكل من
كدر الطبيعة والعناصر مذنب عنصرى

ويستمر (الفارابى) فى دعائه العجيب البليغ، الذى يخلط فيه دعوات الرسول ﷺ مع تعبيرات الفلسفة اليونانية الألهية، مما يدل على عمق تأثره بها تأثر

عن فهم عميق، وإدراك لأسرارها مع خلطها بما قد يصادم العقيدة الإسلامية مصادمة واضحة أحيانًا.

ولم ينج (الفارابى) فى بعض التعبيرات التى أشرنا إليها، وبخاصة فى اعتقاده أن الكواكب السيارة هى المدبرة للكون، الفاعلة له، وإن كانت أنما تفعل ذلك، لأنها من فيض العقل الفعال، الذى هو من فيض الله.

ويستمر (الفارابى) فى دعائه الذى يظهر فيه خشوعه، وتبتله، كما يظهر فيه سعة علمه سعة واسعة بعلوم زمانه، مع بلاغته وقوة أسلوبه:

(اللهم رب الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات، والدنيا الدنية، فاجعل عصمتك مجنى من التخليط، وتقواك حصنى من التفريط، إنك بكل شىء محيط، اللهم أنقذنى من لأأسر الطبائع الأربع، وانقلنى إلى جانبك الأوسع وجوارك الأرفع.

«اللهم إنك قد سجنت نفسى فى من العناصر الأربعة، ووكلت بافتراسها سباعا من الشهوات اللهم جد لها بالعصمة، وتعطف عليها بالرحمة، التى هى بك أليق، وبالكرم الفائض، الذى هو منك أجدر وأخلق، وأمنن عليها بالتوبة العائدة بها إلى عالمها السماوى، وعجل لها بالأوبة إلى مقامها القدسى، وأطلع على ظلمائها شمسا من العقل الفعال، وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال، واجعل ما فى قواها بالقوة كامنا بالفعل، وأخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة وضياء العقل» إلخ إلخ....

ونجد تأثير هذه الفلسفة اليونانية قويا جدا، لدى جميع الكتاب المسلمين، وبخاصة لدى الفلاسفة والأطباء منهم، وحتى أولئك الفقهاء والمحدثين، فإنهم تأثروا بهذه النظرة، وبخاصة من كتب منهم فى الطب النبوى، من أمثال ابن القيم، والسيوطى، والذهبى، وابن السنى، وأبى نعيم الأصبهانى، والمفقه عبد اللطيف البغدادى، وغيرهم كثر.

ومما تقدم مما ذكرناه من دعاء (الفارابى) وابتهالاته إلى الله سبحانه وتعالى

ندرك مدى تأثير الفلسفة (اليونانية) الألهية المتمثلة فى فلسفة (أفلاطون) و(أرسطو طاليس) (أرسطو اختصارا) و(أفلوطين).

ونجد نظرية الفيض الإلهى فى خلق الأكوان تجد صداها، لدى فلاسفة المسلمين وأطبائهم من أمثال: أبى بكر الرازى، وابن سيناء، ولا شك يعود سبب ذلك إلى جهود (الفارابى) فى نشر الفلسفة (اليونانية الألهية).

وعلى الرغم من أن أبا بكر الرازى («الطبيب الفيلسوف» وهو غير الفخر الرازى المفسر الأصولى الفقيه الطبيب المشهور) قد عاصر (أبا نصر الفارابى) بل هو متقدم عليه فى الميلاد إذ قبل (الفارابى) بست وعشرين سنة، فإننا لا نستطيع أن نقول أن الفارابى قد تأثر بأبى بكر الرازى، التى اهتم أيضا بالفلسفة (اليونانية) وألف فيها الكتب.

ويبدو من تاريخ حياة هين الطودين الشامخين أن (الرازى) كان مهتما بالطب، وبرع فيه أكثر من اهتمامه بالفلسفة، كما أن (الفارابى) اهتم بالفلسفة أساسا، وكان اهتمامه بالطب عرضا بسبب اهتمامه بالفلسفة، ولم يمارس الطب فى حياته قط.

ومع هذا نجد جوانب مشتركة بينهما إذ أننا نجد فى رسالة صغيرة لأبى بكر الرازى سماها (المدخل الصغير إلى عالم الطب) نظرية الفيض الألهى، كما وضعها (أفلوطين) وهو نفس ما يقوله به (الفارابى) أيضا، وأن كان (الفارابى) بطبيعة الحالب - أكثر توسعا فى شرح الفلسفة اليونانية الألهية - وتقديمها إلى المثقف المسلم بأسلوب سهل، بعد أن كانت عسيرة الفهم، صعبة العبارة، لا يقبل عليها إلا الآحاد.

بل أن فلسفة (أفلوطين) و(أرسطو) بالذات لا تنتقل إلى الثقافة الإسلامية ومن ثم إلى الثقافة الأوربية، إلا عبر ترجمات (الفارابى) وشروحه العديدة لها.

وقد رأينا كيف حرمت الكنيسة قراءة كتب الفلسفة اليونانية ما عدا فصول محدودة من علم المنطق، ولم تستطع أوربا أن تصل إلى الفلسفة الإغريقية، إلا عبر ترجمات (الفارابى) وشروحه وتعليقاته العديدة وإضافته الغزيرة.

وهكذا نرى (الفارابى) طودا شامخا فى مختلف العلوم العقلية الفلسفية،

وتتلمذ عليه، وعلى كتبه، أجيال عديدة من مثقفى المسلمين، ومثقفى أوربا، وبرع هذا العلم الشامل فى مختلف فروع المعرفة، وألف فيها حتى بلغت كتبه أكثر من مئة كتاب فى الفلسفة، والسياسة، وعلوم الأحياء، والموسيقى، والرياضيات، والمنطق، والخطابا، والأدب، والتاريخ، وقيادة الجيوش، والفقه، وقد سمع الحديث من أئمة الحديث فى عصره، وقد سمع منه، وروى عنه جماعة من المحدثين، كما يروى عنه (ياقوت الحموى) فى (معجم البلدان) ويا له من طودا شامخ فى مختلف فروع العلم والمعرفة...

الحياة الثقافية فى إقليم الشاش:

يعد إقليم (الشاش) أحد أقاليم ما وراء النهر الستة، حسب التقسيم الجغرافى القديم وتقع اليوم - فى جمهورية (أوزبكستان) بالاتحاد السوفيتى، وعاصمة هذا الإقليم كانت تدعى (بنكث) وتدعى - اليوم - طشقند، و(طشقند) عاصمة (أوزبكستان) وقد اهتم الروس بها منذ أن استولوا على خانية بخارى عام ١٩٢٢م، وكانت (طشقند) تتبعها، وأهملوا (بخارى) و(سمرقند) لأنها أكثر استعصاء على الإذالة.

وقد وصف ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) إقليم (الشاش) ونحن ننقل وصفه - هنا بشىء من الاختصار:

(الشاش) إقليم ما وراء النهرين (جيحون) و(سيحون) خرج منها خل من العلماء والرواه والفصحاء، أهلها شافعية على الرغم من انتشار المذهب الحنفى فى معظم بلاد ما وراء النهر ويرجع ذلك إلى أبى بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشى، الذى فارقها، وتفقها، ثم عاد إليها، ونشر بها المذهب الشافعى.

وصفها (الأصطخرى) بقوله: فأما (الشاش) و(إيلاق) فمتصلتا العمل، لا فرق بينهما: ومقدار عرض الشاش مسيرة يومين فى ثلاثة، وليس بخرسان وما وراء النهر إقليم على مقداره من المساحة أكثر منابر منها، ولا أوفر قرى وعمارة، فحد منها ينتهى إلى وادى (الشاش) الذى يقع فى بحيرة (خوارزم) وحد باب الحديد ببرية، بينها وبين (أسفيجاب) تعرف بقلاص، وهى مراع، وحد آخر إلى

تنكرة تعرف بقرية النصارى، وحد إلى جبال منسوبة إلى عمل (الشاش) إلا أن العمارة متصلة إلى الجبل وما فيه مفترش العمارة.

و(الشاش) فى أرض سهلة ليس فى هذه العماة المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وهى تغر فى وجه الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل إسلامها) وأبنيتهم واسعة من طين وعامة دور هم يجرى فيها الماء، وهى كلها مستترة بالخضرة، من أنزه بلاد ما وراء النهر قصبتها (عاصمتها) (بنكث) (طشقند) ولها مدن كثيرة وصفها (أبو الربيع البلخى) قائلا:

(الشاش) وبالصيف جنة، ومن أذى الحر جنة

لكننى يعترينى بها من البرد جنة

وقال (البشارى) (الشاش) كورة (إقليم أو مقاطعة) وقصبتها (بنكث).

وإقليم الشاش مرتبط بإقليم إيلاق أوق ارتباط حتى قال عنه ياقوت (وكورته مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما). ويقول بارتولد وإيلاق هى وادى أنجرين والشاش هى وادى نهر باراك المعروف باسم جرجيق.. ولهذا النهر منبعان يخرج أحدهما من جبال بسكام ويخرج الآخر من رستاق جدغل.

وبالقرب من نهر أنجزين تقوم مدينة نباكث وبالقرب من فم نهر جرجيق تقوم نجاكث والمسافة التى تفصل بين هاتين المدينتين ثلاثة فراسخ فقط..

ويقول المقدسى أن بناكث لم يكن بها حصن وكان جامعها. فى السوق وقد خربها المغول فى هجومهم المدمر فيما دمروا من مدن العالم الإسلامى ولكن تيمور لنك أعاد بناءها وأسماها شاهرخيه تكريما لأبنه القائد المغوار (شاهرخ) ولا تزال أطلال شاهرخيه (كما يقول بارتولد) مائلة على الضفة الشرقية لنهر سرداريا (سيحون) عند فم وادى جيشجن. أسفل هذا الموضع تقوم أطلال مدينة بناكث القديمة.

ويصف بارتولد عاصمة إقليم الشاش وهى بنكث (أو طشقند الحالية حسب أحسن التخمينات) فيقول: كان يحيط بمدينة بنكث سوران داخلى وخارجى وللسور الخارجى سبعة أبواب وللسور الداخلى عشرة أبواب وكان للشهرستان

والآخر على المريض (الضاحية). . وكان طول البلد فرسخ وعرضها فرسخ. . وكانت المدينة وأطرافها تزخر بالبساتين والرياض.

ويشتهر إقليم الشاش وإقليم إيلاق بمعادته الكثيرة وخاصة معدن الفضة. . . وكان منجم الفضة على بعد مرحلة من بنكث (طشقند الحالية). . وكانت فضة الشاش تستخدم فى السكة (النقود) طوال العصر العباسى.

ويذكر ياقوت عن أسبره أنها ناحية بأقصى بلاد الشاش بما وراء النهر. . وأنها بلاد يخرج منها النفط والفيروز والحديد والصفر والذهب والآنك. . وفيها جبال الفحم الذى كان يباع الحمل والحملان منه بدرهم واحد فقط. . وكان لهذا الفحم خاصية عجيبة إذ أنه بعد احتراقه يتحول إلى رماد شديد البياض فيستعمل رماده فى تبييض الثياب ويتعجب ياقوت من ذلك قائلا (ولا يعرف فى بلدان الأرض مثل هذا).

أما قصبة إيلاق فهى مدينة تونكث التى عب على الباحثين من أمثال بارتولد (تحديد موقعها) وكانت الأرض المزروعة الواقعة على نهر جرجيق يطوقها من ناحية الشمال حائط يمتد من جبال سبالك إلى وادى سرادريا (سيجون) وقد بنى هذا الحائط لحماية المنطقة من غارات بدو الترك وذلك قبل إسلامهم وقبل فتح السامانيين لأسفيجاب أى قبل عام ٢٢٦/ . . وينسب ابن حوقل بناء هذا الحائط مائلة إلى حين بارتولد لها (فى بداية القرن العشرين) على شكل حاجز يسميه الأهالى كمبير دوال أى الحائط العجوز (ويا يلها من تسمية تدل على عمره الذى يزيد عن ١٢٠٠ عام) ويبلغ طول بقايا هذا الحائط المكتشف ٢٤ ميلا يدل على أن طول هذا الحائط كان كبيرا جدا. وقد كان هذا الحائط يصل إلى شط نهر جرجيق على بعد فرسخين فوق بنكث (طشقند).

وعلى النقيض من أشروسنة كان عدد مدن الشاش وإيلاق كبرا للغاية فيذكر الأصطخرى ٢٧ مدينة بالشاش بينما يذكر المقدسى ٣٤ مدينة. . ويذكر الأصطخرى أسماء أربعة وقد وصف ياقوت إيلاق بما يلى:

إيلاق:

مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك (المقصود ببلاد الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل إسلامها) على عشر فراسخ من مدينة الشاش، أنزه بلاد الله وأحسنها.

وهو عمل برأسه.. وكورت مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما.. وقصبتها تونكث وبإيلاق معدن الذهب والفضة فى جبالها ويتصل هذا الجبل بحدود فرغانة وقد نسب إليها قوم منهم:

١ - أبو الربيع طاهر بن عبد الله الأيلاقى:

كان أماما تفقه على أبى بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزى وأخذ الأصول عن أبى إسحاق الأسفرائينى، مات سنة ٤٦٥هـ/ ٩٧٥م له ست وتسعون سنة.

٢ - أبو عبد الله محمد بن داود بن أحمد الأيلاقى:

الخطيب: من إيلاق، أقام بمرو مدة وأخذ عن الحسن بن مسعود الفراء ثم انتقل إلى نيسابور وسكنها وأخذ علم (الخلاف) فى أقوال الفقهاء عن محمد بن يحيى الجيزى. كان أبو عبد الله فقيها صالحا سمع الحديث الكثير من الفراوى وعبد المنعم القشيرى وزاهر الشحامى وطبقتهم قم قدم مرو وأقام فى المدينة إلى أن مات سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤ ومن أعلام «الشاش» الإمام أبو بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال (الكبير) «الشاشى»: ولد ٢٩١هـ/ ٩٠٤م بالشاش، وطلب العلم، بعد أن اشتغل فترة بصنع الأقفال، وارتحل كما يفعل طلبة العلم - فى ذلك العصر - إلى خراسان والعراق ثم عاد بعد أن أصبح علما فى الفقه الشافعى والتفسير واللغة والحديث - سمع الحديث من أبى عروبة، وأبى بكر بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبرى، وأبى بكر الباغندى، وأبى بكر بن دريد، وروى عنه الحاكم، وأبو عبد الرحمن السلمى.

له عدة تصانيف: منها (أصول الفقه) و(محاسن الشريعة) و(شرح رسالة الشافعى) وتوفى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م «وأدب القضاة» ٣م. ومن أعلامها الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشى القفال، الملقب بفخر الإسلام:

ولد بقرية (ميافرقين) من أعمال الشاش سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٢٧م ورحل - كعادة طلبة العلم إلى (خراسان) و(العراق) وطهر ونبغ فى (بغداد) وتولى التدريس فى المدرسة النظامية أشهر جامعات العالم فى ذلك الزمان، وصارت إليه رياسة الشافعية ببغداد والعراق.

له عدة كتب، منها: حلية العلماء فى معرفة مذاهب الفقهاء) و(المعتمد) و(الشافعى شرح مختصر المذنى) و(الطلاق). والشافعى شرح كتاب الشامل لشيخه أبى نصر بن الصباغ شرحه فى عشرين مجلدا.

وتوفى ببغداد سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٤م بعد أن نشر العلم، تدريسا، وتعليما، وكتابة وخطابة. ودفن إلى جانب شيخه أبى إسحاق الشيرازى صاحب التنبيه والمهذب.

ولعل القارئ يلاحظ تكرار لقب القفال فى علماء الإسلام، وبخاصة علماء بلاد ما وراء النهر، و(القفال) لقب (صنعة الأقفال) ونتيجة لهذه الجامعات المفتوحة فى المساجد تحول هؤلاء الصناع المهرة من صنع الأقفال إلى صنع الرجال، ومن التفنن فى طرق الحديد إلى التفنن فى طرق الحديث، والفقه واللغة، والتفسير.

وقد مر بنا ذكر الإمامين: أبى بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال: ومحمد بن أحمد بن الحسين القفال، وكلاهما من (الشاش) وسيأتى:

أبو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزى، المشهور بصنع الأقفال، حتى بلغ عمره أربعين سنة، ثم طلب العلم، وصار فيه علما أربعين سنة أخرى، وتوفى سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م فى مصر، ودفن عند قبر الإمام الشافعى، وكان علما من أعلام الشافعية فى العراق، ثم فى مصر.

ومن أعلام الشاش أبو الحسن على بن الحاجب الشاشى:

وهو أحد العلماء الأعلام فى الحديث والفقه، طلب العلم فى خراسان والعراق والشام والحجاز، ثم عاد إلى بلاده الشاش يعلم الناس، وكانت وفاته بها.

ومن أعلامها أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الشاشى:

كان يعد فقيه الحنفية فى زمانه، ولد بالشاش، ونشأ بها، ثم ارتحل لطلب

العلم، وسكن مصر، وتولى بهـا القضاء، وله كتاب (أصول الفـقه) المشهور باسم (أصول الشاشى) وكانت وفاته سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م.

ومن أعلام الشاش أحمد بن محمد بن أحمد الشاشى:

وهو ابن فخر الإسـلام محمد بن أحمـد بن الحسين الشاشى المتـقدم كره. وكان أحمد قد أفتى فى حياة والـده وحدث. وبلغ مكانة عالية فى العلوم الشرعية وإن لم يصل إلى مكانة والده توفى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م.

ومنهم: أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشى:

وهو حفـيد فـخر الإسلام المـتقدم ذكـره تفقـه على ابن الخل شارح كـتاب «التنبيه» للشيرازى، وكانت وفاته سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م.

ومنهم: عبد الله بن محمد ابن أحمد الشاشى:

والد أحمد بن عبد الله الشاشـى. . . وهو أيضا ابن فخر الإسلام الشاشى. ولد سنـة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م وتوفى سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣م. ودفن فى بغـداد إلى جانب والده الفخر الشاشى.

ومنهم: عمر بن محمد بن موسى الشاشى:

ولد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م وتفـقـه بمرو على الإمـام أبى الفـضل اليـمنى وسمع بهـا الحديث من علمائها وتنقل فـى البلاد طلبا للعلم. ومات بقـاشان سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م.

ومنهم: محمد بن على بن حامد الشاشى:

شيخ الشافعية فى عصـره. تفقه على الإمام أبى بكر السنجى فى الشاش ثم استوطن غزنه (فى أفغانستان أيضا) وصنف تصـانيف كثيرة وظهر بها علمه وفضله ثم استدعـاه نظام الملك إلى هراة (فى أفغانستان أيضـا) كان مولده سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦م ووفاته سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عمرو محمد الشاشى:

كان فقيها عالما تفقه على الإمام البغوى وحدث عنه وكانت وفاته سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م

ومنهم: أبو الليث نصر بن حاتم بن بكر الشاشى:

من أوائل أصحاب ابن سريج. من تلاميذه الإمام أبى بكر محمد بن على الشاشى (القفال الكبير) ومنهم الحاكم الذى قال: كتبنا عنه سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م.

(علماء أشروسنة) فيصفها ياقوت بما يلى:

أشروسنة (بالضم ثم السكون وضم الراء وواو ساكنة وسين مهملة مفتوحة ونون وهاء).

أشروسنة بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند بينها وبين سمرقند ١٦ فرسخا.

قال الأصطخرى: أشروسنة اسم الإقليم وليس بها مكان ولا مدنية بهذا الاسم والغالب عليها الجبال تقع شرقها فرغانة وغربها سمرقند وجنوبها حدود كش والصغانيان وشومان وواشجرد وراشت.

عاصمتها بنجيكث ومن مدنها ساباط وزامين وديزك وخرقانة ينسب إلى أشروسنة عدد من أهل العلم منهم أبو طلحة حكيم بن نصر بن جند بك الأشروسنى.

ويقول بارتولد أن كبرى مدن أشروسنة هى (بنجيكث كما يذكرها ياقوت) وأنها الآن أطلال تقع على بعد ستة عشر ميلا إلى الجنوب الغربى من أوراتبة.

أما ثانى مدن أشروسنة فهى زامين التى تقع على ضفتى نهر يخرج من الجبال القريبة ولم يكن لها سور كعادة المدن القديمة، بل كانت الأسواق على ضفتى نهر وتصل بينهما جسور صغار.. وهى لا تزال باقية باسم سرسندة كما يقول بارتولد..

وأما جيزك أو ديزك فتعتبر ثالث مدن أشروسنة... وكانت تقع فى السهل فى رستاق فكنان واشتهرت بأنها أحد أهم مراكز المجاهدين المعروفين بالمطوعة لأنها

كانت على حدود بلاد الكفار من القبائل التركية الشرقية الذين لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام بعد. . وكان بها عدد كبير من الأربطة والخانات المخصصة لهؤلاء المجاهدين. . ومن أشهر هذه الأربطة رباط خدايسر الذى بناه الأفشين قائد المعتصم قائد المعتصم.

الحياة الثقافية فى فاغانة

جغرافيتها ومدنها

تقع فرغانة - اليوم فى جمهورية (قيرغيزيا) فى الاتحاد السوفيتى، وقد أهملت فرغانة وأصبحت العاصمة (فرونزى) - (ويقع جزء منها فى جمهورية أوزبكستان وصف ياقوت الحموى فرغانة فى معجم البلدان فقال عنها: (مدينة وكور واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان فى زاوية، من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخيرات، واسعة الرستاق يقال كان بها أربعون منبرا، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا، ومن ولايتها خجندة (خوقند) وتقع خوقند حاليا فى شرق جمهورية أوزبكستان.

وبفرغانة فى الجبال الممتدة بين الترك وبينهما من الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين، مباح ذلك كله، لا مالك له، ولا مانع يمنع الآخذ منه، وكذلك فى جبالها وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلد غيره. قال الأصطخرى (فرغانة) اسم الإقليم، وهو عريض، على سعة مدنها وقراها وقصبتها (عاصمتها أخسكيت، وليس بما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة، وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم.

ويصف بارتولد أخسكيت فيقول (باختصار وتصرف):

أخسكيت: قصبة ولاية فرغانة تقع فى الجزء الشمالى منها - على شط سيحون (سرداريا) الأيمن ويذكر المقدسى وابن حوقل أنها كانت مكونة مثل المدن القدمية من قلعة (قهندز) ومدينة (شهرستان) وضاحية (ربض) وكانت دار الإمارة والحبس بالقلعة. . أما المسجد الجامع فكان بالشهرستان بجوار القلعة (كما هو

الحال فى سمرقند وبخارى) وأما مصلى العيد فكان على شط نهر جيحون (سرداريا).

وكانت الأسواق فى الشهرستانى وفى الربض.. وكان للشهرستان خمسة أبواب وكان يسقى الشهرستان عدد من القنوات المتصلة بالنهر صب فى حياض جميلة جوانبها من الآجر والجص مصهرجة.

وكانت المدينة تمتد لأكثر من ثلاثة فراسخ كما يقول ابن حوقل.. ويقارنها المقدسى بمدينة الرملة فى فلسطين فيقول أنها أكبر منها بمرة ونصف وكانت البساتين تمتد خارج المدينة إلى فرسخين (الفرسخ ثلاثة أميال) وفى الجانب المقابل من النهر مروج ومزارع كثيرة تليها رمال تمتد بمقدار مرحلة.

وكان يربط أخسكيث بالأجزاء الجنوبية لفرغانة عدد من الطرق فكان هناك طريق مستقيم يربطها بخوقند مجتازا المفازة والرمال (سبعة فراسخ) وهناك طريق آخر يربطها بخوقند عبر مدينة باب وهناك طريق يربط أخسكيث بمدينة قبا يبلغ طوله عشرة فراسخ.

وتقع مدينة كاسان على بعد خمسة فراسخ شمال أخسكيث.. وكانت كاسان عاصمة لأمراء فرغانة فى القرن الثامن والتاسع الميلادى.

ويعد القدسى من مدن فرغانة وقراها أربعين ذات مسجد جامع.. أما ياقوت فيصف أخسكيث بما يلى:

أخسكيث:

بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وت مثلثة وبعضهم يقول بالتاء المثناة.. اسم مدينة بما وراء النهر وهى فرغانة تقع على شط نهر الشاش (نهر سيحون أو سرداريا) على أرض مستوية.. بينها وبين الجبال نحو فرسخ شمالى النهر.

ولها قهندز وربض. ومقدارها فى الكبر نحو ثلاثة فراسخ (تسعة أميال) وبناؤها طين وعلى ربضها أيضا سور.. وللمدينة الداخلة (الشهرستان) أربعة أبواب.

وفى المدينة والربض مياه جارية وحياض كثيرة، وكل باب من أبواب ربضها يفضى إلى بساتين ملتفة وأنهار جارية لا تنقطع مقدار فرسخ (٣ أميال).. وهى من أنزه بلاد ما وراء النهر.

وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب منهم:

أبو الوفاء محمد بن محمد بن القاسم الأخسكيتى:

كان إماما فى اللغة والتاريخ.. توفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٥م وأخوه أحمد بن محمد بن القاسم كان أديبا فاضلا شاعرا.. وكان مقامها بمرو وبها ماتا. ومن شعر أحمد يصف بلده:

من سوى تربضى خلق الله اللئاما
أن أخسكيث أم لم تلد إلا الكراما

ومنها نوح بن نصر بن محمد الفرغانى الأخسكيثى قدم همذان سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م وروى الحديث عن بكر بن فارس الناطقى وأحمد بن محمد الهروى.. وسمع بالعراق وخراسان والشام.

وتعتبر خجندة ولاية من ولايات فرغانة.. وهى مدينة تتبعها أرياف تدعى الرساتيق وقد كانت خجندة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وحدة إدارية مستقلة ولكنها غدت بعد ذلك من أعمال فرغانة وكان لخجندة ملك قبل الإسلام. وكانت خجندة من أكبر مدن ما وراء النهر وتخضع لنفس النظام الذى كانت تتبعه تلك المدن أى أنها مكونة من القلعة (القهندز) والمدينة (الشهرستان) والضاحية (الربض).. وفى القلعة كان الحبس وفى الشهرستان يقوم المسجد الجامع.. أما دار الإمارة فكانت فى الربض.. (على غير المعتاد.. لأن معظم المدن القديمة كانت دار الإمارة تقوم فى القلعة).

وقد اشتهرت خجندة بكرومها وبساتينها.. وكان عدد السكان من الكثرة بحيث لم تكن غلة الحقول المجاورة تفى بحاجتهم من الغذاء.. لذا فإن قمح المدينة كان يأتى من فرغانة وأشروسنة. (وتقع خجندة «خوقند» حاليا فى جمهورية أوزبكستان).

وكانت تشق وسط المدينة قناة تأخـذ من نهر خوجة باقرغان أحـد فروع نهر سرداريا (سيحون). وكانت مدينة كند تعتبر من أعمال خجندة.

وكانت الرحلة من خجندة إلى سـمرقند تستغرق ثمانية أيام بـالراحلة وتعتبر المنطقة الواقعة بينهما ومسافـتها ١٤٨ ميلا ضمن ولاية أشروسنة وكانت المنازل فى هذه الطريق مجموعة من القرى والمدن الـتابعة لأشروسنة وهى باركث ورباط معد وزامين وساباط وأركند وشاوكث.. ولم عاصمة أشروسنة وهى بنجكث تقع على هذا الطريق..

وقد وصف ياقوت فى معجم البلدان خجندة بما يلى (باختصار وتصرف).

خجندة: بلدة مـشهورة بما وراء النهر على شـاطئ سيحون (سـرداريا) بينها وبين سـمرقند عـشرة أيام.. وهى مـدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه مـنها ولا أحسن فواكه وفى وسطها نهر جار والجبل متصل بها.

وفيها يقول الشاعر:

ولم أر بلـدة بإزاء شـرق ولا غرب بأنزه من خجندة

هى الغراء تعجب من رآها وهى بالفـارسية دل مزندة

وكان سلك بن زياد لما ولى خـراسان ليزيد بن مـعاوية بن أبى سفيـان أنفذ جيشا إلى خجندة فهزموا..

وقال الأصطخرى: خجندة متاخمة لفرغانة قد جعلناها فى جملة فرغانة.. وإن كانت مفردة فى الأعمال عنها، وهى فى غـربى نهر الشاش (سيحون) وطولها أكثر من عرضها وليس فى عملها مدينـة غير كند، وهى بساتين ودور مفترشة ولها قرى يسيرة ومدينـة وقهندز (قلعة) وهى مدينة نزهة فيها فواكـه تفضل على فواكه سائر النواحى وفى أهلهـا جمال ومـروءة وهى بلد يضيق عمـا يمونهم من الزروع فـيجلب إليـها من سـائر النواحى من فـرغانة وأشـروسنة أكثـر من سنة ما يقـيم أودهم.. تنحدر السـفن إليهم فى نهر الشـاش (نهر سيحـون) وهو نهر يعظم من أنهار تجتمع إلـيه من حدود الترك والإسلام.. وعموده نهـر يخرج من بلاد الترك فى حد أوزكند ثم يجتمع إليـه نهر خوشاى ونهر أوشى وغير ذلك فـيعظم ويمتد

إلى أخسكيث ثم على خجندة ثم على بنكث (طشقند) ثم على بيكند فيجرى إلى فاراب فإذا جاوز صبران جرى فى بريـة تكون على جانبيه الأتراك الغزية حتى يقع فى بحيرة خوارزم (بحر الأرال).

وينسب إليهـا جماعة وافـرة من أهل العلم منهم أبو عمران موسى بـن عبد الله المؤدب عن أبى النصر محمد بن الحكم البزار السمرقندى وغيره.

وتعتبـر مرغينان من أهم مدن فرغانة وذلـك منذ عهد القراخانيين ويصـفها السمـعانى كـما ينقله عنه ياقـوت فى معجـمه بأنهـا من أشهر الـبلاد من نواحى فرغـانة. وتليها مـدينة قبا وهـى الآن قرية (كوفـا) وتفوق من حيث الميـاه وعدد البساتين أخـسكيت العاصمة نفسهـا.. وكانت كبقية المدن القـديمة تضم (قهندز) (قلعة) وشهرستان (مدينة) وضـاحية (ربض) وكانت الأسواق ودار الإمارة والحبس بالربض.. أما المسجد الجامع فكان بالقلعة وتقع المدينة على مجرى ماء متصل بنهر سيحون (سرداريا).

ومن مـدن فرغانة أنـديجان والنسـبة إليـها أنديجـانى وهى من المناطق التى فتحهـا المسلمون مبكرا رغم أن فرغانة لم تخضع نهـائيا للحكم الإسلامى إلا فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

وهناك أسطورة تزعم أن بفرغانة قبر النبى أيوب ولا تزال موجودة إلى اليوم باسم حضـرت أيوب وحولهـا مياه يـستشـفى بها لأنهم يعـتقدون أنهـا هى التى استشفى بها أيو ب عليه السلام.. وتقع حضرت أيوب هذه على بعد ميل ونصف من قرية جلال أباد بالقـرب من مدينة أنديجان ووصفهـا المقدسى، ويذكر بارتولد فى كتابه التركستان نقلا عن جمال قـرشى أن فى منطقة أسبيد بولان بفرغانة قبور الفين وسبعمائة من الصحابة والتابعـين الذين بعثهم عثمان بن عفان رضى الله عنه تحت أمرة محمد بن جرير فاستشهدوا جميعا فى واقعة مع الكفار.. ولا يزال هذا الموضع قائما إلى اليوم كـما يقول بارتولد. كما نجد فى منطقـة فرغانة فى خوقند قبر الإمام عبد الله بن على زين العـابدين بن الإمام السبط الحسين بن على المتوفى عام ١١٣هـ/ ٧٣١م.

وفى رباط سرهنك فى قرية كاخ من أعمال فرغانة نجد قبر فاتح بلاد ما وراء

النهر قتيبة بن مسلم الباهلى ويشير الأهالى إليه باسم مقبرة (الإمام الشيخ قتيبة) فى جلال كدك من أعمال أنديجتن.

ويصف ابن حوقل الأصطخرى مناجم الفحم فى جبال أسبره.. وكانت تباع ثلاثة أوقار (والوقر حمل حمارا) بدرهم فقط. هكذا كانت فرغانة، أما بعد دخلها الروس القياصرة، وذلك عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م فقد أقاموا بها مستعمراتهم، وطردوا سكانها، وبحلول عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م - كان الروس قد أقاموا ثمانين مستعمرة روسية، وفى عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م - ثار الأهالى ضد القوات الغازية، فأبادت القوات الروسية مائة وخمسين ألفا من الأهالى. وشردت مئات الألوف، الذين فروا إلى الجبال، حيث لاقى العديد منهم حتفهم، نتيجة المجاعة الرهيبة، التى سببتها القوات الروسية بإحراقها المحاصيل، وتكررت حرب الإبادة، بعد أن جاء لينين وقامت الثورة الشيوعية بأبشع مما كانت عليه أيام القياصرة، وأبيد سكان المنطقة الشمالية من إقليم فرغانة (جمهورية قرغيزيا) عن بكرة أبيهم، حتى المواشى والأغنام لم تسلم من الإبادة، ففى المناطق الجنوبية التى بقى فيها القغيز (لأنها أقل خصوبة من المناطق الشمالية) تناقص عدد المواشى من ٦ مليون راس عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م إلى مليونى رأس عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م وذلك حسب الإحصاءات الرسمية السوفيتية. ولم تترك روسيا حتى أولئك الذين تظاهروا بالشيوعية وساروا فى ركابها من سكان القرغيز، بل أبعدت رئيس وزراء قيرغيزيا (يوسوف عبد الرحمانوف) وأعدمت رزفيلوف وعبد الكريم صديقوف لأنهما طالبا بإشباع سكان قيرغيزيا من حاصلاتها الزراعية قبل إرسال المنتجات الزراعية إلى موسكو. وفرغانة (قيرغيزيا) غنية فى ثروتها الزراعية والمعدنية وأهم حاصلاتها: القطن والشوندر السكرى، والحبوب، والفواكه، وأهم معادنها: الذهب، والقصدير، والتوتياء، والبترول، والفحم، الأنتومنى، والزئبق.

كانت (فرغانة) مسقط رأس علماء أجلاء مثل أحمد بن كثير الفرغانى الذى عاش فى زمن الخليفة العباسى المتوكل، وقد انتقل هذا العالم المهندس من فرغانة إلى بغداد حيث اشتهر فى علم الهيئة، ثم طلبه حاكم مصر إلى القاهرة فأنشأ بها المقياس الجديد لفيضان النيل فى منيل الروضة بالقاهرة. ومن علماء (فرغانة) الذين ينسبون إليها أبو منصور أحمد بن عبد الله الفرغانى الذى ولد عام ٣٢٧هـ/

٩٣٨م، وتوفى سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م انتقل إلى مصر، وسكن بها إلى أن وافته المنية، واشتهر بمؤلفاته التاريخية، منها (سيرة كافور الأخشيدى) وسيرة العزيز (التاريخ). ومنها على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى المرغينانى الذى يعد أحد مشاهير علماء الأحناف، نسبته إلى (مرغينان) وهى إحدى قرى (فرغانة) ولد سنة ٥٣٠هـ ١١٣٥م وتوفى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٤م وكان حافظا مفسرا محققا فقيها أديبا من تصانيفه (بداية المبتدى) وشرحه (الهداية فى شرح البداية) و(منتقى الفروع) و(الفرائض) و(مناسك الحج) و(مختارات النوازل) وفتاويه جمعها فى كتاب أسماه (التجنيس والمزو) ومنها حاجب ابن مالك بن راكين الفرغانى انتقل من بلده فرغانة إلى دمشق وحدث بها عن أحمد بن إبراهيم البالس وأحمد بن حمدون وعمرو بن على وهلال بن العلاء وغيرهم.. وروى عنه سعيد بن الأعرابى ويوسف الميانجى وأبو بكر بن ابى دجانة وأبو القاسم الطبرى وغيرهم وكانت وفاته بدمشق سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م.

ومنها: أبو الفتح محمد بن إسماعيل الفرغانى دخل نيسابور، وتلقى علوم الحديث ومنها حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأجنسكيثى نسبة إلى (أخسكيث) وهى عاصمة إقليم فرغانة آنذاك وتوفى سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وهو فقيه حنفى أصولى، له كتاب (المنتخب فى أصول المذهب)، المشهور بالمنتخب الحسامى، الذى شرحه القاسم الجنسكيثى ولد سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م فى فرغانة وهى (أخسكيث) اشتهر بالأدب، وحسن الصنعة فى الكتابة، واختاره الحكام والسلاطين، ليكون كاتبهم، له مصنفات فى الأدب، منها كتابه (الزوائد) فى شرح سقط الزند - للمعرى وتوفى بمرو سنة ٥٣٨هـ/ ١١٣٤م.

***